مكتبة ٦٧٣

فصول

عزمي بشارة

المركز الثقافي العربي

مكتبة | 673
سُر مَن قرأ

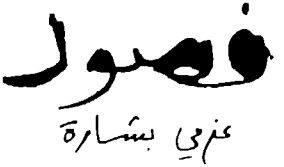

عزمي بشارة

فصول

تأليف

عزمي بشارة

الطبعة

الأولى، 2009

الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-407-3
جميع الحقوق محفوظة

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 303339 ـ 522 ـ 307651 ـ 522
فاكس: 305726 ـ 522 212+
Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01750507 ـ 01352826
فاكس: 01343701 ـ 961+
www.ccaedition.com
Email: cca@ccaedition.com

عزمي بشارة

فصول

مكتبة | 673
سُر مَن قرأ

المركز الثقافي العربي

حقيبة يد

مكتبة
t.me/t_pdf

هنا ليس كلَّ الأماكن
أعنَدُ الذكرياتِ تلك التي لا تباحُ
ترافقه كظله
والظلُّ لا يؤنِسُ
لا يبارحُ، لا يُزاحُ
لكن توضحُ الوحشةَ صحبتُه
تبيِّنُ للواحدِ وحدتَه
مثل صدًى للصمتِ، مثل طيفٍ للشرودِ
تُحكِمُ القبضَ على الإدراكِ
تلصَقُ كالهاجسِ باللحظة
وبالأفكارِ كالكلمات، كاللغةِ
تخِزُهُ كالشوكِ إذ تطفو

وحين يغرقُ في النومِ
ترسبُ في اللاوعي في الغفوةِ. . .

أقصى بقاعِ الأرضِ تلك التي
كان يقصِدُها منهكاً حرّاً وحيداً
مثلَ جنديٍّ عائدٍ من هزيمة
كالعودة يمتدّ إليها الرواحُ
ومهما طالَ فيها المكوث
لا يُفرِغُ حقيبتَه في خزانة
يَستَلُّ منها النهارَ مطويّا
يقدّمه الصباحُ
وفي المساءِ يعيدُ إليها الأمانة
يُلْقي فيها النهارَ كما تُرمى الفُراغةُ في الحاوية. . .
وقارُه مشهرٌ بالعبوسِ
إلى جانبِ مسافرٍ محايد
محكومٌ مثلُه كالبومِ بالتحديق إلى الأمامِ
كما يليقُ بالغرباءِ إذ يتجاورون

في داخل كلٍّ منهما مسافةٌ وحقيبةٌ
وقلبٌ على سفر
ويبتلعُ كلٌّ مع ريقِه التذمّرَ من وجودِ البشرِ
مثلما يبتلعُ الجبانُ شتيمةً، أو كما
يزدرد المهذّبُ حتى السّعالَ الذي «لا يليقُ»
في انقطاع رتابة النَفَسِ، وفي كلّ تنهيدةٍ
يفضحُ ضيقَه الضيقُ بما
يحرِفُ النظرَ
عن تجاهلِ ما يدورُ. . .

في الذهابِ يطولُ الطريقُ
بحكم تعريف الترقّبِ للعناقِ
في الإياب تطيلُه غصّةٌ
من حكمِ تعريفِ الفراقِ
الوجهُ محتقنٌ رغم أنّه أحسّ بوادِرَها في الذهابِ
الأنفُ كأنما تخدَّر بعدَ لكمة
والعينان زجاجُ نافذتَيْنْ

وخلفَ البريقِ يكادُ الدمع يختنقُ. . .

هنا كان يأتي ويمضي
هنا المصيرُ شخصيٌّ، له أو عليه
عبءٌ له على وجهِ الخصوصِ
ومصيرُ الشقيّ، كمصيرِ الغنيّ، ليس محجوزاً
فهو ينسلُّ خجلاً بما وضع عند المدخلِ
كما ينسلُّ من يخفي هُويّته
من عيونٍ سوف تعرفُه
أو يتسلّل كاللصّ ليلا
من الشُبَّاكِ،
أما صاحبُ الحظِّ السعيدِ
فيوقّعُ على استلامِ مصيرِه في رزمةٍ
لا يقتنيه مفصلاً على مقاسِه
بل يُشتَرى محزَّماً في بالةٍ
ويعايَنُ المتاعُ الرثُّ حين تُفتَحُ في المنزلِ
كما تُفحص الثيابُ البالية

يمكنُ رتقُ الخرقةِ أو شدُّها بالحزام
ثم التظاهرُ بالرضى
أو اعتمادُ وجهٍ مكتئب
واستحضارُ ملامحَ مهترئةٍ تناسبُ المقامَ

(ملاحظة:
لا يدعو الثوبُ صاحبَه للانكماش فيه بيأس
ولا يمنعه من التباهي و«التقمّز»، إذا رغبَ،
فالمصيرُ بعدما يقعُ
يغدو محايداً بشأن مصيرِ صاحبِه)

أصبح في ذاته اثنيْن
حين صارتْ هواهُ،
لم يعد دونها نفسَهُ
حين أصبحَ وحدَه
لم يعدْ هو ذاتُه. . .

جمعها من كلِّ ثانيةٍ

من كلِّ لونٍ وحرفٍ
استنزفَ الأبجديةَ في حكايةٍ
تَفنى وهي تُحْكى
كالنار، تنْفَدُ حين تُروى
لا تروى مرتَيْن
وقد رُويتْ وانتهت. . .

مفارقاً جاء اللقاءُ،
لا يعني الفراشةَ لماذا دنت وانحنت فجأة
هذه فطرةُ الفراشات والزهور
وهو ليس فراشة
لم يدنُ لقضاء وطَر أو غريزة
لكنها سحرتْه أو ملَكتْه أيْمانُها
فماذا جرى؟ ولماذا جرى ما جرى؟
يعنيه ويسكنُه التساؤلُ. . .

بدا التعارفُ عادياً كيفما اتّفق

بين الخجل والصمت والإحراجِ
وقولِ شيءٍ لكسرِ الهدوءِ، أو للتظاهرِ بالوثوقِ
لم تمرَّ سوى ثوانٍ
وحضر الغيبُ
صار كليَّ الحضورِ
خاب تمويهُ الجليِّ بالكلماتِ والصوتِ
باء الحديثُ بالفشل
فلتت أطرافُ الحديثِ وبانَ ما يُخفي
كانت النظراتُ تختَلَسُ
صار يُختلَسُ السفورُ
وما لبث أن حلَّ السكونُ
والاطمئنانُ للصمتِ. . .

مصادفاً كان اللقاءُ
وليس مفارقاً أن وجدَ فيها
ما فقده وكاد ينسى أنه افتقدَ
وبقي مندهشاً بما وجدَ

أما هي، فكأنها تحررت للتوّ،
أفلتت في لحظةٍ من يأسِها من العثور عليهما
وربما وجدا أخيراً ما انتظرا طويلا . . .

هنا ليس أيَّ الأماكن
هنا فُقِدَ الفضولُ وصمدَ التساؤلُ
كيف ارتُكِبَ بعد تمديدِ العمرِ هذا التفاؤلُ
فلا الحياةُ مباراةٌ، ولا في زمنٍ إضافيٍّ تسمحُ بالفوز
تذكرةٌ للذهابِ بلا إيابٍ
لا تشملُ التعويضَ
ولا تقبَلُ التمديدَ
ولا الفُرَصَ الجديدة
ولا تتيحُ في الزمانِ «بدل الضائع»
تسجيلَ الهدفِ،
أيصِحُّ أن يُشرِقَ وضحُ الغروبِ؟

ربما تُؤلَفُ الغرائبُ
ويشرِقُ حتى الغروبُ
إنما في المألوفِ إذ يغدو مدهشاً
تكمن المعجزاتُ
ولا معجزة
فربما تأخرَّ حبُّهُما قليلا
أو ربما كان ما اكتشفاه أفضلَ
من أن يكونَ حقيقةً
وسرعانَ ما ندمت أنها عثرت عليه
فهو ليس حليةً موروثةً فُقِدَت
ولم يخطر المفروغُ منه ببالِها
فمثلاً
أن تجدَهُ كان يعني بالضرورة أن يجدَها
وأن تحياه يعني أن يعيشَها أيضا
ومثل انشطارِ الواحد
تُطْلِقُ وحدةُ الاثنين بعد هذا العمر ثوراتِ

ويوقظ العشقُ أشباحاً قديمة
ومخاوفَ ربما كانت دفينة. . .

تجرأت حتى المخاوفُ
وانبرت عقدٌ قديمة
تآلفتْ ومضت تثور عليه. . .

فما وجهُ الغرابةِ في أنها
لم تمسك بموجتِه الأخيرةِ قبلما ارتدّت
لم تحتمل أصلاً تكسُّرَها
فكيف تمسك بالريحِ والماءِ،
ومن ذا الذي يقبض على زبد؟
رفضت تخلِّيَهُ الجريحَ
لم تَرْجُ
لم تمسك بأهدابِ الثيابِ
ما رأت في عمرِها
ولكن طالما سمعت عن امرأة تُرِكَت وحيدة

وعن رجلٍ ارتدَّ
متذمّراً شاكياً أو مزمجراً متوعّدا
كأنه المنبوذ والمتروك فعلا
لكنّها بعد حريةٍ دفعت ثمنَها
لن تصيخَ السمعَ لثرثرة النساء المحبطات عن الرجالِ
ولا هي هنّ
ولا هو همُ
وهي ليست محضَ مستقبِلٍ للثرثرة
ولا فريسةً للطرائفِ
لا مدهوشةً دائمةً، ولا دهشةً مُستدامةً
ولا تعزِّزُ الراويَ بفغر الفم
فهي ثورتُه وملجأُه
وهي السلامُ المستحيلُ بين الرصانة والحنانِ،
والانطلاقِ والانكفاءِ
وهي اللقاءُ الذي كانَ ينتظرُ. . .

وهو الذي ذرفها من بين يديه

مَن هزمَ ذاتَه، هيهاتِ ينتصرُ
وهو يعلمُ أنه المندحرُ
لكنه لا يزفُّ الخسارةَ متظاهراً أنها الظفرُ
وهو يعرف أن ضالّته الوحيدة
تلك التي اختزلت ما أراد
لم تحلِّق بعدَه حرّةً خارج القفص
بل هامت على وجهها مثله
لا تنظر للخلف ولا تُلوي عليه
خيبة كخيبات البشرِ
ينجو منها بجلده من يؤمنُ، أو يسلِّمُ بالقدرِ
ولنا، ولمثلنا تدنو نهايةُ الدنيا وتمتثلُ
وتنجلي بعد حين وتنسحبُ
وحين تنقشعُ لا يعود المرءُ إلى البداية
بل يمضي كثَّ المشاعرِ
بعلوه غبارٌ عالقٌ من بلادِ النهاية
وخيباتٌ تمرَّغَ بها
ومرارات عاد ينفضها عن المعنى المكابرِ

وفي العينين بعضُ ذاك الوميضِ ينطفئُ. . .

لم يندهش من ضيقِها المتهالكِ
فمذ ذابت شكائمُه
في زرقةِ السِّحْرِ
ثورانه يومان في الأسبوع
ولكن أيُّ يومين؟ لا تعرفُ
وخلافاً للحيْضِ توقيتُه لا يُحسَبُ
تضاءلَ الفرقُ بين الحبِّ والغرقِ
كان يخنقُ الفرقَ بأمِّ يديه
وتلاشت الهنيهةُ الفاصلةُ بين النشوةِ والبكاءِ
غص الفرح بذاته فانهمر
في حمّى الشراكة بالوسادة رقّتْ كوابحُه
فلم تلجمْ جماحَه
وإذ تدفّقت زالت حواجِزُه
كما كانت تلين محرِجَةً صباهُ

بإطلاق هواه على هواه
حين تبخّرَت بفعل كأس واحدة وعينين،
باسمتيْن؟ (ربما)
وربما حزينتيْن، (من يدري؟)
لم يكترثْ في حينه، لم يعنِهِ الأمرُ
ففي تبادلِ النظراتِ كمن الجوهرُ. . .

لم يَرِد حبُّهما في الحسابِ
لا، ليس في عمرِه الحالي
ولا بعد هذا الغيابِ
فليس غريباً أن وهنت «أناه»
وفُلَّ الحزمُ، وخارت قواه
شتّت عصرهما زمانه
وأنساه المآل والاتجاه
ربما يدركُ الحبُّ أن هبوبَه العفويَّ لم يحسب خطاه
ولكنه يغفلُ أنه ينزعُ السحرَ

ويودي بالرهافةِ حين يشتدُّ
ويجهلُ أنه يطفئُ شعلةً صمدت طويلا
وباتت بعد تكرُّرِ الإضرامِ تخمدُ
وما أدراه متى أو كيفَ صار من الجمرِ الرمادُ
وما لاحظ النارَ يوماً ولا رأى في ما كان جنّتَهُ دخانا
وحين أدركها أخيراً راح يخمدُها بصبِّ الزيتِ
بكاتمِ شفتين وقبلة
بعد الرمادِ وقبل الوداعِ راحَ يعالجُ الصدمةَ
والذهولَ بالاغتيالِ. . .

في الطريقِ من قبلةٍ ما احتَوَتها
كي تصفعَ البابَ من خلفِها
وهي في الردهةِ تنتحبُ
خطفت هويّتَه بدل الحقيبة
حملتها من غير قصد
في السنةِ الألفِ لجنونِهما المشتركِ

لم ينتبه منهما أحدٌ للفرقِ. . .
وخَرِسَ صاحبنا كأنه المشجبُ
جمد في مكانه مشجباً عاريا
كانت تُعَلَّقُ عليه هوية. . .

* * *

كانت تسألُ

وكنتُ أُجيبُ وأسترسلُ
وبعد حين أفطنُ:
لا حولَ ولا . . .
أنا لا أحبُّ الأسئلة،
ولَكُنتُ أهملتُ المحمولَ والحاملَ
لو جاء التساؤلُ من غيرها
فهل غيَّبتني العيونُ المصغية
أم هي لا تسمعُ، ولا أتكلمُ
هل غبتُ، والفمُ لا يعلمُ؟
لا انتظرتْ أن أعي ما يدورُ
ولا اكترثتْ للإجابة
وفيما فمي يهذرُ

بعدما غاب الذي يجزرُ
تنتهزُ الغيابَ لتنظرَ في عيوني

* * *

عن اللون المفضّل

سأَلَتْ بعد خصامٍ تجمدَّ
ثم تلاشى أو تبدَّد حين سماعِ الخبر
أقصدُ خبرَ الموتِ الأخير
لماذا تحبُّ الأزرقَ؟
وأرجوكَ، لا تذكرْ لونَ عينيّ
فذكرُ العيونِ معلوكٌ
وبعد العلك مجترٌّ ومبتذَلُ
الألوانُ تحلو كالطبيعة حولنا
وتقبُحُ حُكْما
في السياقِ القبيحِ
فلماذا تصرُّ كالأطفالِ
(أو كصحفِ النجومِ والأغبياء)

على اللون الأثيرِ؟

أجبت:

لأن السماءَ زرقاءُ

والبحرَ. . .

فقالت:

سلكتَ طريقَ ابتذالٍ

يقودُ إلى العيونِ

لأمرٍ معلومٍ بالضرورة

فالمكتوب يُقرَأُ من الشفتين

ونفقُ البلاغةِ هذا مطروقٌ ومألوفٌ

في نهايته أرى عيني

قلتُ:

دعيني أكملُ ما بدأتُ،

والبحرُ أزرقُ والسحرُ أزرقُ

وقلبُ لهبِ الشمعةِ الخافقُ

وضوءُ المصابيحِ الخافتُ،

والأفقُ، والنيلُ النجاشيُّ

وشرفةُ بيتِنا الأوّلِ
دُهنتْ بلكنةِ والدي «أزرق سماوي»
وقبّةُ المسجد القديم في حارتنا
(كانت أقربَ للأزرقِ رغم ادّعاءِ الخضرة)
وأوّلُ ثوبٍ لأخي الصغير. . .

ابتسمتْ بخبث وقالت:
والجنُّ أزرقُ والذبابُ أزرقُ

قلت:
هذا طريقُ ابتذالٍ
أو إذا شئتِ طريقُ اعتدالٍ
يؤدي إلى عَلَمٍ
بخطّيْنِ أزرقيْن
ونجمةٍ زرقاءَ في الوسطِ،
أرى عَلَماً يرفرف
عند آخر الجنِّ والذباب

قالت:

أرجوك

عُدْ إلى الطريقِ المؤدّي إلى عينيّ

لم يبقَ من مانعٍ لديّ

قلت:

عدنا والعَوْدُ أزرقُ،

والسحرُ والبحرُ والنهرُ والأفقُ

ونفحةُ العطرِ، وملابسُ الأطفالِ

و«مراييل» المدارس

والعينان... زرقٌ

* * *

ابتسامة

حين تعتبُ يتجنّبني نظرُها
إذ لا تتبادلُ النظراتِ مع أحدٍ
بسهولة غير محتملة حتى أنا أصبحتُ أحداً
تقطبُ حاجبَيْها
وتنهمكُ عابسةً إزاءَ كلِّ ما تفعلُ
فيبدو أتفهُ الأشياء
عظيمَ الشأنِ

وأرى إذ أُمعن النظرَ
أَنَّ يَدَيْنِ حانقتَيْنِ
تنزعان أهميّةَ الأشياء منها

كما تُمَزَّقُ أغلفةُ الطرود
كما تُفتَحُ الفواتير الشهرية
ليُرمى الغلافُ والمحتوى
أمازحُها فلا تكترث
وتَبخل عليَّ بنظرة،
أناديها حازماً بالاسمِ تلتفتُ
فأضحكُ متسائلا
حتى متى؟!
وأوثق قيد عينيها
أمسك بالنظراتِ كي لا تفلتَ
كي لا تُشيحَ بوجهها
فتعود للتحديق مقطّبة،
وحين تنفرج الشفتان
أعرف أنّ الجمالَ حيّ يُرزق
فالصباحُ وفيٌّ لا يخون بزوغَه
وأن الشمسَ التي طلعت

لن تُحْرِجَ اليومَ الذي وضعتْ
وأن المساءَ لن يُمحوَ ما انبلجَ من شفتيها
وأن صبانا لن يخجلَ بنا، وبما أُلنا إليه إذ شِخنا
ولن يندمَ على نَزَقٍ
قادَنا إلينا سوية

* * *

مديح القناعة

وحدَه غاضباً من ذاته
سئِماً من هشاشته
ريحٌ بلا هدفٍ تكفي لتَذروَها
همسُ الهواجسِ يسفي ما تبقى،
لكنه عاجزٌ عن الإفلاتِ من كبريائه
لا تجمعُ الريحُ
أوراقَ الخريفِ في زوايا الشقة
ولا يحلو بعد هذا العمرِ اجترارُ استعاراتٍ
مثل «ريشة في مهب الريح»
فهو يسقط قبل التعثّر
ويهبط قبل التحطّم

ووهنُه ألمٌ في العنق وتخدّرُ الأطرافِ،
وسرسابٌ يلحُّ
بأنه رأى ذاتَ مرة في الحلمِ ما يجري معه،
وبحثٌ عما يسندُ الرأسَ
عسى أن يرى غير صورتها
فلا يجد في مرمى البصرِ ما يدعوه للنظرِ
ولا مفرَّ من تناوبِ الأرقِ والنومِ جلوساً
كي يستطيعَ التنفّسَ
ووهنه صمتٌ، وبوحٌ كظيم
يخفي الكآبةَ كما يسترُ البشرُ مرضاً في هذه الأصقاعِ
يجتنبون لفظَه تطيُّراً، أو خشية الشماتة
أو لأن المجاهرةَ إلى حدِّ التباهي بالمصائبِ
مرذولةٌ في عُرفه
ووهنُه جزعٌ من فكرةِ اضطرارِه للعمل
ومن رؤية الناسِ في يومِه التالي
فممارسةُ الاكتئابِ في عزلةٍ
امتيازُ المترَفين

كم يَحسِدُ اليومَ من ليس مضطراً للعمل. . .

(وبين الذات والذات، والأنا والهنا
وجد له الوقت المناسبَ لتخيُّلِ بعضِ البشرِ
دون الهندامِ واللقب، ودون المنصبِ والمنزلةِ
وللتفجع:
ماذا يساوون، وهل كانوا سيستحقون منه طرح
السلام؟)

من يستلُّ يقظتي من عمق هذا الليل
من ينتشلُها من الدجى
أو يفرّقه بخراطيم المياه
من يشقّ أمواجَ الهواجس بالعصا
لتقفَ كالجدران فأعبرُ بينها
من يطفِئُ أرقي بصباحٍ
من يرفعُ هذا الضبابَ
الزاحفَ حتى الضحى

من يحظُرُ التلويحَ بسيف الظهيرة
من لي بمساء يحجزُ ليلتي دونَ بابِه
فأمضي، أو أبيت عنده دونها
فلا يبلغ أذنيَّ وعيدُها أن أنتظرَ
وأنها تدور، ولكنها إليَّ لا محالة عائدة

جرى قبل لقائها أن كان وحيداً في جماعة
كالطيرِ الملوّنِ في سرب السنونو
مثل إوزة سوداءَ في خطّ البجع
وكان أن تعدّد في ذاته
دون انفصام، كالمرايا
وفي الحاليْن لم يتعثّرْ ببشرى في الجزعِ
ولا نال أن تُقَدِّمَهُ التعاسةُ للهناءِ بحجةِ أنّ التعارفَ سنّةٌ
فحين كان نفسَه . . . وحدَه أو في جماعة اختلطت فيه
ولكن ليس عليه، مشاعرُه
ومنذ أن غدا فيها سواه اختلط على المشاعرِ
واختلطت عليه بدورها

وصار لكل عملةٍ وجهٌ، ولكل لحظة وجهان. . .

كان اليومُ يومَه قبل أن يصبحَ أمسَه
حين تنفّس بين الضفائرِ
وكانت يدُه يداً كي تلمسَ اللون والرائحة
وكان ينتشي بين ارتشاف النبيذ والشفتين
ينشدُّ كالوتر، ثم ينقطع ملتويا
ويلتفُّ على جهة من الجهتين
كان ينصحُ الطامعَ بالزيادة بالاكتفاء بالابتسامة،
وبالقناعة بالدموع
ما دامت قابلةً للرشفِ، راضيةً بالقُبَل
وأن يغزلَ الخيطَ الضئيلَ بين الخيبةِ واليأسِ كنزةً
تقيه بردَهما في جميعِ الفصول
كان يرمي هلالَ الخريفِ برعشةٍ
يشمّه قبلَ بقيّةِ البشرِ
وكان يصومُ في أول المطرِ
مكتفياً برائحة الترابِ

وكان يفطرُ في أمسياته
لم يحلِّل، أو يدقِّق
كان يشعرُ بالدقائق
يحسُّ بالأشياءِ
وكان يعيشُ ليحيا الفوارق
وكانت تعرفُ كلَّ ذلك. . .

بات يشرحُ الفرقَ بين الوجدِ والحزن
ويقارنُ بين الحبِّ والعشقِ، وبين الفنِّ وحبِّ الجمال
يدركُها بفطنةِ العقلِ، بنباهةِ اللغةِ
ويعلّل ما الأجدى، وما الأنفعُ
ويشخِّصُ ما يستحِقُّ منها أن يعاشَ
ولكن صار يستوي حلوُها ومرُّها
ويلتزمُ أنفُه الحيادَ بين الروائحِ
ويذهلُ الجنان عن شحنةِ الوجدِ
عن مسحةِ الأمل

عن لمحة العتب
عمّا وراء العبارة
أو يغفو عنِ استقبال الإشارة
يتركها للعقلِ، للدرايةِ
أو لحساباتٍ لا تعرفُ إلا الربحَ والخسارة
ولا تفقهُ معنًى لافتقادِ الحسرةِ، أو لخسارةِ الخسارة
وهي ليست على علمٍ بما يجرى له
لأنها هي ما ألمَّ به
هي ما أصابَه. . .

استعصى على التفسيرِ والبيان
وعلى التمحيصِ والتشخيصِ
أمرٌ متعذّرٌ على الفهمِ
مقفولٌ على البرهانِ
يحيل الشوقَ تأنيباً، والوجدَ تعنيفا
والوهمَ همّاً على همّ

لم يدرك العقلُ ما لا يُعْقَلُ:
متى امتلأ الزمانُ بالفقدِ،
وكان تخلّى طوعا،
ألمْ يتركْها بمِلءِ الإرادة؟

* * *

لون ورائحة للمساء

لا عادت
ولا طلب منها أن تعودَ
اكتظَّ المكانُ بوحدتِه
امتلأ الههنا بالفراغِ
تزاحمت عزلةُ المغتربِ
طفَحَتْ
غصَّت بها الشقةُ
وما لبثت أن انكمشَت
وانزوتْ مثلَ فأرٍ هاربٍ خلفَ الأريكة
حلَّ المساءُ والضيقُ ينزعُ للركودِ
وبعد أن أطلقَ دوّاماتِ فوضى
راح يرسبُ في قاعِ الوجودِ

مخلفاً محلولَ الفضاء بنيّاً داكنا
وانتشر الانقباضُ حتى غدا حالة مناخية . . .

فوضى تفاصيلِ المدينةِ لا تشكلُّ لوحةً
لكنها تكفي لتحجبَ صورةَ الأفقِ البعيدِ
لم ينجُ منه سوى ملتقى الضوءِ بالعتمةِ
أبواقُ سياراتٍ وصفَّاراتُ شرطة
دوخة اللافتات والدعايات الفاقعة
صور الخالدين قبل اندثارهم
والشاغلينِ الناسَ للحظة قبل أن يطويَهم النسيانُ
نجومٌ تضاءُ وتُطفَأُ قبل الأفولِ
دوامة الأحرفِ المضاءةِ دُوارٌ وحالةُ سكرٍ
في شارع الاستقلال الذي صار جادةَ الكلامِ
سلسلةُ محلاتٍ لبيع الهورموناتِ
ومعارضُ للعرضِ والمعروضاتِ
ومطاعمُ للأكلِ السريعِ
وأخرى للصدورِ البارزة والمؤخرات الجاهزة

وفي بلازا السلام الذي كان ميدان التحرير
أكشاك لمجمّدات الإثارة
ومجمّعات للعياداتِ، والطبّ الطبيعي
وتسوّقِ العلاجاتِ
ودكاكين لمعلباتِ الحضارة
ورائحةُ شواءٍ من مطاعمَ متجاورة
لا فوارقَ تلحظُ بينها
تجمّعاتُ الشبابِ تصرُّ أمامَ المراقصِ
تزدحم المداخلُ رغم غلاظةِ الحرسِ
العنفُ والصخبُ حيويّان في التجمهرِ
في شبق الميادين. . .

الباراتُ شاحبةٌ
ليلها كالغسقِ، أو كليالي الصيف في مدنِ الشمال
والأغنيات انسحبت من الأحياءِ
خُصِّصَت لها مواقفُ وصالاتٌ للعرضِ

لذا يُحظَرُ تركُها على جوانبِ الطرقِ،

في جهةِ المدينةِ الأخرى
على قفا الضوءِ، عند ضفةِ الليلِ الثانية
على سفوحِ الزمنِ، وفي هوامش العصر الحديث
تلفُّ المدينةَ كالأحزمة أحياءٌ داكنة
جرت العادةُ أن تمسكَ الأحزمةُ السراويلَ من السقوط
أما المدن فتنوء بالأحزمة
أحزمةُ المدنِ أمارةُ سقوطها . . .

شبابيكُ من عيونٍ مشرعةٌ للقلق
وعيونٌ من شبابيكَ مفتوحةٌ للترقبِّ
يغطّ بالنوم خلفها الإعياءُ
رائحةُ النهارِ عالقةٌ
مثل رائحةِ الوُرَشِ عند فتحِها في الصباحِ
كرائحة البشرِ والبارودِ بعد المعركة
جسدُ الليلِ يتفصّد ندًى

على أجسامٍ مسدلةٍ عندَ الفجرِ
الثيابُ منكّسةٌ على الشرفات
والأزياءُ صارت أعلاماً تميلُ إلى التوَحّدِ
هوائيات استحالت صحوناً تحاولُ دون جدوى
أن توحِّدَ السطوحَ فتزيد المشهد بهدلة. . .
أكلَ الزمانُ على قمرِ حاراتِنا
كنس الكنّاسون بدأبٍ ما بليَ منه وما تساقطَ
وعُلِّقت صورةُ القمرِ ليلاً، والهلالُ والصليبُ نهاراً
وحوْلهُما نجومٌ ذهبية كالتي
كانت تحيطُ يوما بالسيف واليراعَةِ
أو بالمنجلِ والمطرقة
تلْصَقُ بسهولة فائقة، إذ استورِدت من الصين خصّيصا
ولكي تتلألأَ طُلي سقفُ الحارةِ بالأسودِ الحالكِ. . .

ما زال ضوءُ القمرِ القديمِ ينبعثُ من أحد المساكنِ
يقال إنَّ رجلاً أهداه لطفلتِه في عيدِها الثامنِ
قبل أن يرفعَ يديه مستسلماً

حفِظَته في كتابِ الأناشيد، هديةِ العامِ الفائت
بين الدفّتيْنِ
وخبَّأته تحت الوسادة. . .

هجرت الفقرَ رومانسيةُ الطبقاتِ والفقرِ
لا يُرَى من هنا لقاءُ السماءِ بالأرضِ
كان يوسمُ مرةً بالأفقِ
هل تذكرين؟
لا يُلمَحُ الآنَ سوى لقاء الفراغِ بالعدمِ
هل أحلامُنا فارقَتْنا لتعودَ ثانيةً كالطيور المهاجرة،
أم مضت إلى غير عودة
لأنها انقضت كما مضت السنون
وقسَّمتنا
صنفٌ يزولُ وأحلامُه حيةٌ تُرْزَقُ،
وصنفٌ تموتُ أحلامُه في حياته
لا فرق، يحيا بعدها أو ينفقُ؛
واحدُ يشيِّعُ والديه، ويحملُه إلى القبرِ أولادُه

كطبيعة الأشياءِ أو لأن الموتَ حقٌّ
وآخرُ يدفِنُ ابنَه أو بنتَه
ويبقى معاقاً، حيّاً، ولكنه لا يُرزقُ
يحملُ العاهةَ حتى المماتِ

* * *

استنتاج متأخر

ما إن ترحَّمَ على أفقٍ قضى قبل الأوان
وغدٍ مضى وهو في عزِّ الغدِ
حتى بلغه أنه قد يجدُه في مستقبلٍ ما
عند الضفّة الأخرى، على كرسيِّه الهزاز
في الوقتِ المسطّحِ، في الزمن الممتدِ أفقيّا
في الفضاءِ المديدِ
يغفو هنيهاتٍ ليصحوَ هنيهةً من الكرى. . .

هنا، في موقعٍ غيرِ مُشْرِفٍ
لا يصلحُ للسياحةِ، على شرفةٍ فقدت بيتَها
بقيت معلقةً بين السماء والأرض
تطل على عدمٍ على مدّ النظرِ

تأرجحت روحُه مثل كرسيٍّ فارغٍ
هزّته الريحُ فانبعثَ الصريرُ
فلنقرأ آيةَ الكرسيِّ
أو «أبانا الذي» سوّانا وغادرنا
وكنا حسبناه لم يخلق سوانا
لا فرقَ إن جرى ما جرى
أو وقع أو حتى سقط
أو قامت أو جلست القيامة أو شُبِّه لنا
فعليٌّ شابٌّ عصاميٌّ مخضرم
ونعني بذلك
أنه عالق في اللامكان بين النقطتين
في اللازمان بين اللحظتين
بين السليب والمستلب. . .

سيّانِ إن وُجِدَ الواحدُ
واستحالَ على التصوّرِ
سيّانِ إن مثلَ المحالُ، أو قاوم التمثُّلَ

لم تعد تَعنيهِ حقائقُ مفزعة
أنه يعني العدمَ كما يعني الكمالَ
ولا فرق أن صفاتِه تنفي توحّدَه
وسيّانِ إن فرغ الفضاءُ أو امتلأ
سيّان إن دار الزمانُ، أو علا بخط مستقيمٍ، أو تحلْزَنَ أو تلَوْلبَ
أو تكامَلَ أو تقطّعَ واجتزأ
هذا كلّه أو بعضُه سيّان، لأنه شتّانَ
شتان إن خلا الفؤادُ أوِ انشغل
شتان إن خمد الوجدانُ أو اشتعل،
سيّان هذا كله
لا يعادلُ لحظةَ الوهمِ وإيمانَها بالهدف
لا يضاهي ما فَقَدَ
ما أطلق الخيالَ
واجتاح المجال
وقاومَ خيرَ الأمورِ الوسط
وأسَرَ القلوبَ

إذ لمع قبل أن يعتليه الصدأ . . .

سيانِ هذا كلُّه أو بعضُه
لا يساوي تلمّسَ الشفتين للشفتين
والأهدابُ مسدلةٌ
والرذاذُ الأوّلُ
واستراحةُ الأحلامِ
لحظةَ افترشا السحابة
سيّانِ هذا كلُّه لا يساوي مدَّ الكلام بلا نهاية
زمنَ اكتشافهما بلا نومٍ لبعضهما
ومناجاةَ الحقيقة
والتساؤلَ دون انتظار الإجابة
حين كان الفضولُ حياً يسْهَرُ
نابضاً متدفقاً متفحّصا
لا يتمادى عليه السباتُ

كلّه أو بعضُه لا يساوي تنهيدةً

تتلو غمامةً شفافةً
ترافقُها حين تلجُ الغرفةَ،
عطرُها الخفيفُ لا يشَمُّ بالأنفِ المجرّدِ
تتنفّسه جدرانُ الغرفة
إذ أورقَتْ
وحين يُطِلُّ كي يتنفسَّ الدنيا
يرى روحَه تتسلَّقُ الشرفاتِ
وهو يتدلّى منَ النوافذ كلّها . . .

لا شيءَ يشبه روحَها في البيت
تؤدَتَها بالذات منطقة الخطر
استغراقَها بالقراءة وهو يكتب في الغرفة المقابلة
عُروضَها المغرية أن تعدَّ له فنجان قهوة
قدرتَها أن تحزُرَ ما مرَّ بباله ثم اختفى
أن تجيبه حين التساؤل عما انتسى
أن تذكِّرَه، أن تصوغَ له الرغباتِ
وحدها فاكهتها الموسمية

تنبّهُهُ لدورةِ الفصولِ
يتحدثان عن الأبناءِ
تتضاءل الدنيا
تتحجَّم الأشياءُ
إذ ينحّي ذكرهم أيَّ شأنٍ جانبا
يجلسه مؤدباً مستمعاً في السياقِ. . .

لا شيء يدنو من المحبةِ حين تغدو ألفةً
وتصيرُ يوميّةً
مثل رائحةِ شعرِ الأطفالِ حين ينبشه الأنفُ
فاتحاً الطريقَ للشفتين
مثل رائحةِ الخبزِ الطازَجِ
وشذا الياسمين عند المدخل
وعبق الحطبِ في الساحةِ الخلفيةِ
مثل صوت الجاز في السيارة
مصحوباً بوقعِ المطرِ
وإيقاع مسَّاحات الزجاجِ
حين كان يجوبُ البلادَ ليلاً وحدَه،

مثل ملاءاتِ السريرِ الطازجةِ
ترافقُها نفحةُ الهواءِ الباردِ على الوجنتين
جسمه دافئ
وهي تدثّرُه بعد حمَّى كي تفتحَ النوافذَ للتهوية
وفسحةٌ تحفظُ ملامحَها بين الستائرِ والفضاءِ

* * *

مكتبة
t.me/t_pdf

أمن

لم يبحث عن ثورة في الأزقّةِ
ولا طلبَ الإلهامَ عند مدخلِ الحانة
ولا عيَّنَ التسكُّعَ بين العبارات أدبا
لمجرّد تعدادِه الخمرَ والوحلَ والزانياتِ
لم يكتب عن الدمِ في حياته
ولا خلط الحبرَ به
ولن يفعل الآن بالمناسبة
بحَثَ عن مسكِّنٍ ومهدّئ
لجأ إلى النومِ كي لا تنفردَ به ذاتُه
وخَشيةَ أن يبحثَ عن أحدٍ يحتملُه
فينتهي الأمرُ به إلى احتمالِه
وإلى تمني مرورِ الزمنِ

ولكي لا يحدِّقَ في كتابِه
فتختلط عليه السطورُ مثل نوتة
وكي لا يرى الكتبَ بأمِّ العين
وهي تقفزُ فارّةً من المكتبة
أو تتحوّل بلا ذرّةٍ من حياء إلى ورق جدران ملوّنٍ
وكي لا يجلسَ أمام شاشة التلفاز
فيستحوذُ عليه الطعامُ
أو يعتريه فحصُ الثلاجة لغرض التحديق كلَّ دقيقتين
ولكي لا يقبعَ في الزوايا
واهماً أنها أكثرُ أماناً من بقايا البيت
لأنها تضمُّ الظهرَ والجنبين
أو يجول بين الغرفتين
كوحيد القرن في ساحة ترابية صغيرة
رآه في حديقة حيوان في عاصمة عربية
فأشفق عليه وعلى المدينة
إذ كيف تحملُهُ وهي بالكادِ تحمِلُ سكّانَها

حلِمَ بقهوة صباحيّة وسيجارة
هي تتأمّله بصمتٍ
وهو يرتشف بالأنف والشفتين
كينونةً من الندى والمدى
ودون أن ينظر يرى بطرف العين
زريعةً شاحبةً وملامحَ مألوفةً مستندة إلى الجدارِ
تنظرُ إليه كأن نظراتِها تحمي يمينَه
وتسمح له أن يحدّق بالفراغ
من هنا وحتى إشعار آخر

* * *

شرحٌ صباحيٌّ

كان حين أجيبُه
يرفع حاجباً، يستغربُ
ولفرط إعجابي حسبتُ أنّ صاحبي يدرِّبُ حاجبَه
كما يتدرّبُ مهووسٌ يلقي أمام المرآةِ
حيَّرَني أمرُ الزائرِ الصباحيِّ
هل حقّاً يعْجَبُ
أم يستعرضُ دهشتَه
خبرتُ الحياةَ بما يكفي لأدري
أن الإنسانَ استعراضيٌّ،
أو ينتمي لهذه الفصيلةِ
ويضعفُ أمامَ ميلِه للتباهي
فهو معرَّضٌ أن يستعرِضَ

حدّةَ الذكاءِ وجزيلَ العطاءِ
والصوتَ الرخيمَ
والسرعةَ والقفزةَ العاليةَ
والبيتَ الرخامَ والثيابَ والحذاءَ والهندامَ
والألقابَ العائليةَ والشهادةَ الجامعيةَ
ودموعَه في اللحظةِ المؤثرةِ
وتقليدَ الأصواتِ وأصواتِ الحيواناتِ
والإبداعَ في التقليدِ
وكلَّ شيء
ويعرضُ حتى الصدرَ والمؤخرة
وها أنا أفتحُ بابَ صباحي لنموذجٍ بشريٍّ
يستعرض عضلات الدهشة فوق العينيْنِ
ولا يحمل لي خبراً ولا خبزاً، ولا لبناً طازجا . . .

بعد يومين على غيابي أو ثلاثة
زارني للاطمئنان بلا موعدٍ

فهو اجتماعيٌّ أو صاحبُ واجب
لا يفوتُه فرحٌ أو عزاء
جاء مُبديا حرصا أكيدا
- بك شيء؟ لستَ نفسَك!
لم أجد للوَجْدِ من سببٍ صباحيّ يصاغُ
فليس الأمرُ معلولاً لعلّة، ولو بدوتُ معلولا لعينيه
لم أهتف أني وجدتها
فلمن أزفّ فقدانها
وماذا أشرحُ؟
وليس في مخيلتي سوى وجهِها
ولقطاتِ لحظاتٍ حميمة
وليس في البال سوى ضمِّها
وحين تبتعدُ
لا مجال بيننا لغيرنا يُفسحُ
بابي مشرعٌ، أما بابنا فموصدٌ في غيابها
لا يُفتحُ. . .

كان اللقاء مصادفاً، لكنه أوقف الصدفة في حياتينا
الفعلُ الذي خَلَقَ لم يأمرِ الفوضى لتمتثلَ
ولا أوجدَ شيئا من العدمِ
واستراح في اليوم التالي
أو لم يجد راحةً إلى الأبدِ
يتواشجُ العجيبُ بالعاديِّ في خلَجاتِه
فواو العطف تجمع الشيءَ وضدَّه
حين تصبح واو العاطفة
وفي الجمع هذا يكمن سرُّ السعادة
والبداياتُ الجديدة، والولادةُ من جديد
وتتولّد الخيباتُ عنه، ونهايةُ الدنيا قبل الوفاة. . .
ليست أمورا جرت، فأحكي له ما جرى
لم أبُحْ ولم أخْفِ، فالشفافيَةُ لا تُرَى
بل ترى من خلالها الأشياءُ
وما في الصدر يؤرّقُ
يفضحُ لا يمهلُ

والكبرياءُ مهما أكتمُها عالقةٌ في عنق صباي
تطلق ثوراتٍ أختنق بها
وأنا الآن وحدي
أكبحُ رغبةً تعصف بي أن تعود إليّ
وبين ثورة الشوق تنتابني
وعاديةِ الرغبةِ التي تقمعها الكبرياءُ
(التي يكبتها الحنين الذي ينقلب حزنا)
أكادُ أنفصمُ . . .

لم أتكلم ولم يُصْغِ
تأمّلني
كما يتأمّلُ الناسُ مخلوقاً غريبا
- هل أنت من النوع الذي يقع؟
احتجب عليّ مرماه
إذ لم احتسِ بعدُ قهوتي
فأسهبَ في الشرحِ
إنه يعني التورّطَ في الحب

وبمفردةِ النوعِ يعني رجالاً عالقين في حبِّ النساء
وأسهبَ، كما يسهبُ روّادُ المقاهي الدائمون
في الشرح للنادل وللضيوف الطارئين
وعيّرني أني ليُسْرِ تورّطِي
أهوي حين أهوى
وأتعثر بسروالي الداخلي. . .

لم أبالِ
لم أغضبْ على غير عادةٍ
مع أنّ تحديدَ نوعي يعني اختزالي
وتصنيفي بموجب صفةٍ وحال
وما دام يوزّع الناسَ أنواعا
فلا بأس أن يردَ أني أقعُ في حبّ امرأة محدّدة،
وكيف يجد دُرْجاً كهذا؟
وهو لا يعرفُ امرأةً، بل يعرف المرأةَ كما يدّعي
أدراجُه مرتّبةٌ حسبَ النوعِ والجنسِ
ولا مكانَ لديه لواحدةٍ
وأنا لستُ منَ النوع الذي يقعُ في حبّ النساء

لستُ دُرْجاً يقعُ في حبِّ دُرجٍ
ولا أنا نوعٌ يقعُ في حبِّ نوعٍ
لا أُبرِزُ ما يُنَضّدُ في الملفِّ حين يدبّجُ المدحُ
كسمةِ العاطفيِّ، ولمسةِ الضعفِ المحببة
في الثناءِ وفي القريظِ
في تعدادِ مناقبِ الفقيدِ
وكلوثة تلطِّخُه كزير نساء
حين يُنشَرُ العِرضُ ويُنظَمُ الذمّ
إذ تُعدَّدُ العيوبُ في الهجاءِ. . .

لا تجدُني حيث يُصنَعُ الرجالُ
من حيازة النساءِ
والذكورُ من تملِّكِ الإماء
لا أجول على الإناث كزير هباء
أو مثلَ ديكٍ مشرئبٍّ بالهراءِ
ولا كبائسٍ يتوَسَّل الكآبة لاستعطاف الالتفاتة
لتسوُّلِ عطفِهنَّ

أو كمن يقع في حبّ ذاته حين يزعمُ حبَّهنّ
لست أفقهُ في الحبِّ تعميماً، ولا في الهوى جمعا
فأنا يا سيّدي سهلُ التعلّقِ
لكن بواحدةٍ محدّدةٍ حين أعشقُها
وأخصُّها وتخصُّني، ويخصُّنا الأمرُ
لا أعرضُ حبي
لا أروي مغامرة
خيبتي لا تُهدَرُ
تزداد لوعة إذ تُهذَرُ. . .

من يزعمُ ولعاً بهنّ كمن يدّعي شغفَهنَّ به
يمارسُ النوعَ
ويسهِّل لك التصنيفَ
أقصد النوعَ الذي، على عكس وصفك وادّعائه
لا يحبُّ ولا يولعُ
قد يحصي عددَ النساءِ
يحسبُ الخسائرَ فلا يقعُ

يتّقي العاصفةَ كي يسترقَ إليها النظرَ من هامشِ العاطفةِ
كالمنحرفِ تمتّعُهُ البصبصةُ
حتى على العلني السافرِ
من خرمِ إبرة في الفضاءِ
ومن سكَّرةِ بابِ مشرعِ
ويتطابق في عرفه جنيُ النساءِ بحبِّ الذاتِ،
وبالحساباتِ
يخوض عواصفَه في الفناجين
يعوم على شبرٍ من الماءِ
يلفُّ يدورُ في الفراغِ
لا يشعرُ، بل يستشعرُ الزهرةَ
كي ينظم فيها المقالَ والشعر
يجمعُ الرحيقَ بالظمأ
وبنفسٍ سحيقةٍ لا ترتوي
قد يتوسّل العقلَ والفكرة
ولكنّه
لا يتركُ بين العقل والفطرة فسحةً للعاطفةِ
فهو لا يحبُّ بل يلبي حاجةً

أو يضيفُ رقماً للقائمةِ
وما دخلُ الطنينِ بالحنين، والوجدِ بالمجد
ما دخل الحنانِ بالانحناء لجمع الطعام
ليس الهوى نوالَ إرْبَةٍ من أنثى
لكنَّ حبَّ امرأة يجعلُها غايةَ الأَرَبِ...
من يهوى يحبُّ واحدةً ويُتَيَّمُ
فاكتبْ أني أكادُ أموتُ
وأُزهِقُ الروحَ عند الفراقِ
وبعده، طعمَ الحياةِ أفقدُهُ
من يستهجن الحبَّ ليس بحاجةٍ لصديق
ومن لا يحبُّ لا أَلْزَمُهُ
صديقُ نفسِه يسبقني إليها
يفتقدُ حيناً مؤنساً يعبر به عامَ الدجى حتى الصباح
وينقصُه من يقطع به وقت الفراغ
إلى الفراغ اللانهائي...

* * *

تشرفنا

- عذراً، سبق أن التقينا
ألستَ أنت الأزرقَ؟
- لا، أنا انتشارُه فقط
أنا الزرقةُ في كلّ لون
- آسف، هل أنت قريبه؟
- نعم، كانعكاسِ السماءِ في الأشياءِ.
- تشرّفنا.

- عذرا، رأيتك سابقا
في أواخر الصيف
ألستَ أنت الخريف؟
- لو كنتُ فصلاً لما التقينا

أنا خريفُ كلِّ الفصول
زمن العبور
من الشتاء إلى الربيع
من الصيف إلى الخريف
من الخريف إلى الشتاء
أنا مناطقُ التخوم
أختفي فقط بين الربيع والصيف
لن تجدني هناك
سيكون عليك انتظارُ العبور القادم

- أيها الأدباء والمبدعون

لا تناقشوا المعاييرَ السخيفة
لا تختلفوا على المقاييس
أنا ورقة عبّادِ الشمس
اختبارُ صدقِكم
أستحيلُ زرقاءَ عند الطرب

ولبضع قطراتٍ من الجمال
أرتعشُ
- أيها الباحثون عن اسمٍ يصنّفني

لن يفيدَكم السؤال عن هويتي
أنا نصٌّ أدبيّ
اقرأوني من جديد
دون حَسَبي ونَسَبي

- أيها المطر المنهمر

لستَ تعرفني
انا المبتهل إليك
المبتلّ بفرح وحدي في شوارع المدينة
بعد أن تفرّقتِ الجموع
أنا شوقك الحيران بين الأرض والسماء

- أيها الخطباء المفوّهون

والمحاضرون المملّون

لستُ هتافاتِ المتحمسين
ولا صخبَ الضجِرين في القاعة
أنا المهذّب الصامت
الذي لم يعد يحضر
لأنه صار يُحرَجُ منكم ومنهم

- أيتها الشهور المهرولةُ الحمقاء

لِمَ تدورين حول الشمس
ماذا تطحنين؟
أيها الناس لماذا تحتفلون بالأيام التي فينا
والسنين التي تحتوينا،
وتحتفون حتى بالفصول؟
لماذا تثيركم الأرقام الدائريةُ
فيمسكم مسٌّ من جنون

عند الألف والمائة وعند الخمسين؟

ولماذا تذكرون الأحداث بالأيام
وغالبا يكفيكم ذكرُ السنة
متى تكتفون بنا نحن الشهور؟
سوف أغادر هذه الدزينةَ الخرقاءَ
أنا تشرين

- أيها الشباب المفعمون بالنشاط

المدجّجون بالأحلام والطموحات
الذاهبون إلى المدينة
لن تعثروا عليّ
غادرتها إلى القرية الصغيرة
ولم أعثر عليها
ادعوا لي أن أجدها

* * *

عطلة

أيتها المطاراتُ التي صارت ثكناتٍ ومجمّعاتِ تسوُّقٍ
أيها السائقون الذين لا أعرفهم
لكلّ منكم قصّتُه وهمومُه
لا أشكُّ للحظة
موظفي الاستقبال الواثقين في الفنادق
تختفي الابتسامةُ عن وجوهكم
حالَ رؤية وسماع ما لا تتوقّعون
كم أنتم خائفون
صوتُ موظفة البدّالة كساعة إيقاظ
مَن صحّاكِ لتوقظيني
صباحُ الخير
صباحُ الخير

أيتها البائعاتُ في الأكشاك
في حوانيتَ متشابهةٍ سئمتُها
تتحمّلنَ نزَواتِ المارّين بين الرفوف
بابتسامةٍ تتلاشى خلف ظهورِهم
أين تذهبن بعد العمل؟
يا رجالَ الأعمالِ المُضجِرين
أقصد كثيري الكلامِ والمقِلّين
الخدمةُ احتلّت مكانَ الطقسِ والأسعار
كموضوع الحديث المفضّل
خدمةُ المطاعم، خدمة المضيفات، وخدمة الخدمِ
على سبيل المثال لا الحصر
وصارت عِلما مقارنا
أهنّئكم على هذا التجديد
أيتها الديباجاتُ المملّةُ التي تُفتتَحُ بها
الكلماتُ الافتتاحية
أيتها النكت المفصّلةُ على قياس الحاضرين

المَخِيطَةُ لخصْرِ المناسبة
أيها التصفيقُ والقهقهة العالية
كم أنتم مُقفِرون

أيها المشاركون في الحلقات النقاشية
والمؤتمرات التي لا حاجة لها
لا تسلّي أحداً، ولن يفتقدَها أحدٌ

أيتها الأماكنُ الأثرية
أيها المتحفُ الذي تحمل كلَّ هذا الاهتمامِ
والتظاهرَ بالاهتمام، والتحديقَ والهرولة
وصدى الخطوات على الرخام
وروائحَ العطور على أنواعها
والمكيّفاتِ وعرقَ المصطافين
لا أشفقُ عليك

أيتها الأماكنُ التي فقدتُ الفضولَ لرؤيتها

أيتها الطبيعةُ المرزومة في كتيّباتِ السياحة
انتظروا جميعاً بياناً هاما :

أحتاج إلى عطلةٍ
صباحٍ جميلٍ، صباحٍ طويلٍ في ساحة البيت الخلفيّةِ
رزمةُ صحفٍ تنتظرُ اهتمامي
الاستحمامُ مؤجّل حتى الظهيرة
وفنجانُ قهوةٍ لا يفرغُ
والأطفالُ حولي مهرجانٌ من اللعبِ وأسئلةٌ
لا أتذكَّرُ أو أتمنى رؤيتهم
أقبِّل منهم من شاءَ متى شئتُ
واكتشافي أن الكتابَ الذي أقرأُ يستحقّ القراءةَ
وموسيقى لا تنضبُ

أحتاج إلى عطلةٍ في غرفة الجلوس
لا يصمّم لي أحدٌ وقتي
ولا يعبث مجهولٌ ببصري وسمعي
أو يتحدّى عدمَ اكتراثي بالتوافه

أو يمتحن لا مبالاتي بآخر صرعةٍ
ولا أعْلَقُ فيها بين الجموع
وهي تفعلُ ما ينبغي في العطل
يزدحمون حيث ينبغي
وفي الذهاب وفي الإياب

* * *

عدم

لم يكن في يومِ عليٍّ
أمرٌ غيرُ عاديٍّ
كان اليوم يومياً، إذا صحَّ الكلامُ
وليس حتماً أن يصحَّ
إذ لا ضرورةَ أن يكونَ الاسمُ إسمياً، والفعلُ فعليّا
فلا ينسجُ العدمُ مثلا
من ذاته عدميةً كالعنكبوت
ولا تتشرنق يوميةٌ في كلِّ يومٍ
مثلُ دودةِ قزٍّ في الحرير
ولا تنبت للفقر أجنحة
كي يحلّقَ كالفراشة
وحين يصمت حتى العندليبُ

لا يُمنَحُ البؤسُ صوتاً ليصدحَ بالنشيدِ
أمّا يومُ عليٍّ فكان بصرفِ النظرِ يوميّا
لا أسود ولا أبيض، ولا بألوانِ الجريدةِ
بل جاءَ عاديّاً بألوانٍ طبيعية
وذلك رغم سوداويةِ صاحبِنا الرمادية
ما صمدت واردةٌ منه
في قبضة اللحظةِ حتى أفلتت
قبل تسليمها للّحظة التالية
تناثرت في فضاء أفكاره
وتفرقعت كحبّات فشّار
يبددها أيُّ صحوٍ من شرودٍ
تنفضُها أيُّ لفتةٍ عن ذهنِه كالغبارِ
وإذ دارت تحلّقت في دوّامةٍ خاوية
وما انتظمت حتى تبعثرت ثانية
وانطفأت مثل فقاعاتِ صابونٍ
تسبقُ نفخةَ الولدِ. . .

قَفَزَت من فراغ مقفَل في رأسه
إلى بحر الفراغ،
هربت من شِباكِ الذاكرة
واختفت نسياً منسيّا
لا تستحق اسمَ الخاطرة. . .

بعد تسلّلِ الألفيةِ الثانيةِ سرّاً إلى الألفية الثالثة
دون إعلانٍ عن وظيفةٍ شاغرة
وبعد تقاعدِ القرنِ العشرين قبل انقضاءِ مدّته الزاهرة
ضيقاً بتنكيدِ حالاتٍ استعصَت على الحلِّ
مثل حالتِنا
وتحرّجاً من أسئلةِ الأقاربِ عن مرضى لا شفاءَ لهم
وفي انعطافة يوم عاديٍّ عموديِّ الشمسِ
كما يفترضُ في الظهر قبل الواحدة
تراءت له رؤيا على قارعة الزمان
ظهرت له ظاهرة
(منذ أن صار زمانُه يومَه

صارت قارعةُ الزمان تعني رصيفَ يومِه في لسان العرب:

بطالةٌ على طريق غير قائم

بلا بداية ولا نهاية

وعطالةُ العاطلين على السلالم

واتكاءٌ وقرفصةٌ وجوجلةُ ونرجلةٌ

في الميادين وبين المقاهي مبعثرةٌ

وعند جدران البيوت

في حيرةٍ من مغادرة المكان

ومن أمرِهم عندَ الغروبِ

فقد مكثوا دهوراً تبرّرُ النسيانَ

أيسندون الجدرانَ أم تسندُهم

لا يجرؤ أحدٌ على المخاطرةِ بفحص الجوابِ بالتجربةِ

فكلُّهم آيلٌ للانهيارِ

وقتٌ فارغٌ دون اتجاه

بنايات تعجّ بالخواء
بيوت منزوعة منها البيوت
نفوس موحِشةٌ
وأرواحٌ يبست أغصانُها
وجفَّت عيونٌ أيقنت أن الشكوى على كتِفِ الفراغِ
مستحيلةٌ
ناهيك البكاءُ)

على قارعةِ الزمانِ تلك قرعَ رأسَه
وطرقَ بابَه العدمُ
وما إن قطعَ صوتُ الفراغِ سكونَ الظهيرة
حتى فقدَ عليٌ النسيانَ
وأصيبَ بالذاكرة

ما يجدر ذكرُه
أنه مؤخراً لا تفترق في وقتِه
لحظةٌ عن أختِها، ولا فكرةٌ عن ظلِّها

وذلك ليس شوقاً، أو محبةً
بل محضُ عجزٍ عن فهمِ سببٍ للتميّزِ
وعن تشخيصِ معنًى للنهوضِ
من عدم السريرِ إلى عبثِ النهارِ
ومن فراغِ النومِ إلى الفراغِ
وعن تبيّن أمرِه من غيرِه
وعن الاكتراثِ
وعما يراودُ اكتراثَه عن بعضِه

كان يوماً، لحظةً، عاماً، لا فرق
لم يعِرْ أحدٌ اهتمامَه
المستقبلُ المنشودُ لم يأت
ومذّاك، ما جرى لم يجر في الوقتِ
(أما أسئلة
«لماذا في هذا الوقت بالذات؟»
و«من المستفيد؟»
فيقترح عليّ حظرَها

بعد نبذها خارجَ الشرعيّة لثقلِ ظلِّها
إذ ينوءُ بها من به مسٌّ من نباهة، أو لوثةٌ من عقلٍ
وأن تُعلَنَ سماجةٌ يعاقبُ عليها القانونُ
لاقتحامها خصوصيةَ الأذنِ
وإلزامَ الجاني في ما عدا القضيةَ الجنائية
بدفعِ تعويضٍ عن الأضرارِ المعنويةِ
كما في حالةِ طرحِنا صرعى، بل سقوطِنا شهداءَ
ووجهُ الشهادة أنَّا سقطنا ونحن نجاهدُ
وكنا نقاومُ عدوانَ البلاهةِ
ليس الزمانُ مجنّداً في خدمةِ قضية
ولكنّه يرى في بعضِ الأمورِ وجاهةً
لا يعارضُ الزمانُ مثلاً حقَّ البشر، إذا أرادوا
بأفقٍ للتحرّرِ من ضيقِ الأفقِ
وحقَّهم في مقاومة الغباءِ
وفي رفضِ التطبيعِ مع البلادة
فهو أملُها بالبداهة للـ«تحرّر من هذا التخلف»
وإلا فسوف تغدو فسحةُ الأمل

فرصةً للزمانِ للإفلات من المكانِ
بعد بعث الحركة واصطناع الجلبة
للإرباك ولفت النظر. . .)

* * *

عبث

تعادل الأمامُ والخلفُ
تصافحا وأخليا الحلبة
وكأنَّ الأمرَ عاديٌّ
كان الأمرُ عاديّاً بلا جلبة
وغادر القبلُ بعدَ البَعدِ
وسبق السابقُ اللاحقَ
وهو يمضي في عودة ظافرة
أو ربما كان يمضي في عطلةٍ خارجَ البلدِ،
وتثاءب القدرُ سأماً من القدرِ. . .

العبثُ كالمعنى امتيازٌ من امتيازاتِ البشرِ

كان ما كان وما لم يكن
حين نبَّه الصوتُ عليّاً أنه يركض موضعيّا
فكيف يغادرُ نقطةً ليصلَ أخرى
وقد غيّر الفلكُ المدارَ
وفقدَ السيرُ المسيرةَ
وضيّع العصرُ المسارَ
ونفدَ مفعولُ الخطى
حتى خِلتَ صاحبَها يغادر للإقامة في سكونِ النفس
للحلول، وللا شيء، والاتحاد بالعدمِ
أو قلقاً يراوح في المكان، أو يعود القهقرى
لا أمسى اليومُ أمساً، ولا غدا الغدُ حاضراً
وجدتَ اليومَ يحضنُ يومَه
والأمسَ يحضنُ أمسَه
صامدين، لا يقبلان بناموس الفراقِ
فيما الغدُ المأمولُ محتارٌ
لا يجرؤ على فكِّ العناقِ

* * *

يقظة

اضطرَّ عليٌ للتأمّلِ
فحالَ توقّفِ الزمنِ باغتته الذاكرة
فكر صاحبنا بالصوت
أليس هو الشيءَ والعدمَ، صرخةَ القتيلِ والقاتلِ
صوتَ الزمانِ السحيقِ
أيتبعني إلى هذي المجاهلِ؟ وأنا استقلتُ وانسحبتُ
وعزفتُ عن التفكُّرِ، وعن الحرية والتحرّرِ
وعن التريّبِ والتشكّكِ
وعن ادّعاء صنع خياراتي بذاتي
وبقيتُ رغمَ ذلك مستمرّا
فقدتْ ذاتيَ الذاتَ

ولم تصبحْ جماداً بعدَ ذلك
لا هربتُ من الدنيا إلى الغيب
ولا استعذتُ من الحيرة بولاءات القبائلِ،
لا استغثتُ من فقد اليقين بيقين الهوياتِ
ولا لجأتُ من الشكِّ إلى عصبياتِ الأوائلِ
لم أنحت للتقاليع تمثالا
لا لعنتُ أسلافي
ولا أعلنتُ أسلافَهُم عصراً ذهبياً في المقابلِ. . .

ربما عدتُ طفلاً يخشى المجهولَ
وترعبُه الأصواتُ العاليةُ
أو ربما كهلا
يشكُّ بأيِّ اقتراحٍ
ويرتابُ بالوجه الجديد
ويتجنّب لفحة البردِ
فدعني أعايشُ صمتي بصمتٍ

* * *

عدمية

مذّاك تعوَّدَ العدْوَ في صفقةٍ مع نفسه
يخلِّصُ ذاتَه من ذاتِها
فمنذ أن عقدَ العزمَ أن يعيدَ النظرَ
أن يُعمِلَ الفِكْرَ
لم يجد جدوى ومعنى في ما يفعلُ وما لا يفعلُ
وفي ما يُعقَلُ وما لا يُعقَلُ
ألغى الانتظارَ، وعاد يجري
حتى جرت عليه العادةُ. . .
يعدو عليٌّ هارباً كي لا يحدّق بالفراغِ
تجنّبا
كي لا يُفاجأ بالبلاغِ أنه حين يحقّقُ القصدَ

يكون التحقّقُ نفيَ المثالِ
وتصبح الغايةُ مجردَ نفاية، أو تغدو وسيلةً
في الطريقِ إلى البدايةِ
وأن تجسيدَ الهدفِ نفيٌ له

* * *

ركض موضعي

كان يكدُّ لتنفيذ ما يعتقدُ
وكان يلهو ليخلو من العملِ
ويتعايشُ في عرفِه الهزلُ والجدُّ
مرَّ دهرٌ مذ رُسِم بينهما الحدُّ
فللهو قواعدُ وثيابٌ وأماكنُ ومشاربُ ومتاعٌ
وللعملِ زِيٌّ وجهدٌ وهدفٌ وقصدٌ
كان يحسبُ ليلَه خمراً لأن غداةَ الخمرِ أمراً
أصبحَ يعملُ كي لا يفكّرَ
بات مهموما
أصبح منهمكاً بلا شيءٍ
كأن العملَ وقتُ الفراغِ من الفراغِ

لا يفكِّرُ بالنهايةِ والبدايةِ
لكنه مثلاً يرى فجأة أنه
حين يركضُ
لا تحمل رجلاه إلا نفسَه
هاربةً من نفسِها
وهو يعدو في المكان

* * *

هاجس

هل جُنّ الجنونُ به
أو عبثَ به العبثُ
أم خاطبَه الصوتُ فعلا :
تتثاءبُ الأقدارُ وأنت تجري في الدوائرِ يا عليّ،
انقضى عصرٌ
وولّى غيرُه
وأنت تحرث غيرَ آبِه
يا عصيَّ الفهم فكِّر بالمصائر
لا تعمل الفكر مَلِيّا
لا نحثُّك أن تُواجِه
والنفس تُفْتَنُ بالمخاطرِ
فقط فكِّر رَوِيّا

ووافقْنا بما يكفي لكي
لا تفهمَ المغزى
فتعرفَ أن لا جدوى
وتدركَ العبثَ كي لا يدركَك. . . !

- تبددت الرواياتُ الكبيرةُ. انقلب الزئيرُ نباحاً خافتاً تحت المطر. علقت الأوركسترا العسكرية. غرز المارشُ في الطين. ناءا بحمل أوسمةِ المعاركِ التي لم تكن، وبأساطيرَ عُلِّقت على صدر الرواية أثقلت كاهلَ الأصلِ. التحمَ ما جرى بما لم يجرِ. وتعانقا سوية في الوحل. صار المستقبل الواعدُ ماضياً يعيدُ النظرَ. اختفت الروايات الكبيرة. سطعت مثل النجوم، بشرت بعوالمَ باهرة. ومضت كحزمة ضوء عابرة. امتصَّها الفضاء بثقوبه السوداء. وانطفأت لم تخلِّف أثرا. . . وبعدها، من كثرة الأدواتِ ضاعت صورةُ الهدف. ولّت فلولُ الحلول مذعورةً من دغلِ التفاصيل. ومن كثرةِ الأشجارِ اختفت غابةٌ، غابتان، من يدري؟ حلَّقت الغايات فوق رؤوسنا الحالمة مثل طائرة من ورق، أو مثل زغب الشوك، كالحجل في كابوس صيّاد يحسبه

سربا وهو سرابٌ ما إن يحطُّ حتى يطيرَ، وما إن يطيرُ حتى يحطَّ. اللبيبُ يلتقطُ الإشارة. بعد أن غادَرتْ الدنيا، عادت الحتميّاتُ دينا كالخلاص المنتظر، يسَلِّفُ الناسَ العزاءَ على الحسابِ، ويهدي تنهيدةً مجانية للعجائز.

- ماتت إذاً حتميةُ التاريخ. وانفتح الطريق إلى حرية الإرادة، إلى أمر الأخلاق، إلى «افعل ما يصحّ». سيستعيد الخُلُق دوره، ويعود دور الذات.

- لم تفهم الرسالة. الحرية مجازفةٌ لا تُحسَبُ ومعاناةٌ مضمونةُ العواقبِ. مثلُ سيزيف تسامُ صنوفَ العبث في نكد وفي كمد. ومغازي الحقبِ نسجُ حكاياتٍ لا مفر من الزهد بها وبذل الجهد بتقدير المهارة ومديح الشطارة. لا بدّ من رعاية المواهب التي تمسخُ الموضوعيةَ حياداً بين الحقيقةِ والكذبِ.

- وما دخل الموضوعية بالحياد؟ الأولى انحياز للحقيقة، والثاني موقفٌ بغضِّ النظرِ.

- ابق إذا أنت مسلياً سيزيف في وحدته وتناقشا سوية بصبرٍ. أما نحن فلا نقفُ أصلاً على الحيادِ. فقط

ندّعي ذلك. الحيادُ يحيِّدُ الحقَّ ويحكِّم القوة. الحياد اسمٌ حركيٌّ من أسماء الانحياز للقوة. الحياد حجابُ المصلحةِ واسمُها المستعارُ. نحن ننحازُ للمصلحة. وهي تقضي أن يُسمّى الانحيازُ لها حياداً، وأن يُدْعَى الحيادُ موضوعية. فمن أجل إعادة تأهيل الكذب لا أنجع من مساواته بالحقيقة، وأن يدعى الحيادُ بينهما موضوعية. وإلا فسوف يصرخُ الكذبُ الكسيرُ القلبِ ضد الغبنِ. سوف يملأ الدنيا صراخاً واحتجاجاً على التمييز ضده.

- قبلنا بحسن الأداء لفترةٍ في غياب الهدف. لأن إعادةَ التقييم بعد الاهتراء لا بد أن تراوحَ في المكان، فيما يراوحُ الإصلاحُ بين المكابرة وصريح الافتراء.

- ولا بأس بالتذكيرِ والتكرارِ أن القيمَ وعظٌ يليقُ بالجدّات. والصيروراتُ هي الموجِبَة. والمعايير إما أداةُ قياسٍ، أو أضغاث كلام. لا أثرَ للمعايير في الأخلاقِ إذا، فالأخلاقُ نسبية. وعبارة افعل ما يصحّ بغض النظر ليست بديهية. فما الصحيح، وما القبيح، ما الخير أصلاً، وما الشرُّ؟ أليس أنفعَ منها تمييزُ

المريح من غير المريح، أليست أداتيّةُ العقل أجدى، ونجاعة الأدوات أَوْلى، ونسبية القيم أنسب، من غباء المطْلَقات؟

- كنا ضحكنا سوية ضحكةً مُرّةً. وسخرنا من قفزة أخرى، من البداوة نحو الانحلال دون المرور بالحضارة. فها أنت تقفز قفزة حرّة من إيمانٍ بحتمية التاريخ إلى العدم والعدميّة دون التعريج على الأخلاق، ودون زيارة الحريّة، ودون المرور في البلاد مرورَ الكرامِ أو اللئامِ. فلا تسخرْ من شيء وتأتيَ مثلَه!

- بل هي نسبية الأخلاق بعد الانهيار. وما عليك إلا أن تنصَّ مذكّرةً للضميرِ أن يلتفت لصحته قليلا. لا بأسَ أن يغفوَ فهو لا ينام مؤخرا. ولا ضيرَ من بثّ التفاؤلِ حين تبيح الضرورة المحظور، لا لتأميل أحد بخير، لكن لتحقيق مأرب، مثلاً: باستخراج الأحكام من الأماني، وبحلول الانطباع محل الفهم والاقتناع. فالإثارة تحلو بدل المعاني. ولا بأس بهندسة العبارات كي تُستَدَرَّ التهاني، وتصميم موجة صوتية تنتهي بتصفيق، والابتسام ببريق تنبلج عنه الشفاه.

- هذا صحيح في عالمٍ لا فرق فيه بين دعايةٍ لمعجون أسنان وأغنية، واجتماعٍ وحفلةِ استقبال ومسرحية، وحملة انتخابات برلمانية. وانتقاء الحجة المثيرة أهم من القضية.

- أرأيت؟ لا بأس من التظاهرِ بالنضْجِ بالتريّب من كل المعاني. لأن المعانيَ جواهرُ متخيّلة. والمغازي شعارات بعيدة، أو محضُ تنظير وفلسفة. الأدوات فقط أكيدةٌ. لا مفرَّ منَ اصطناع رصانة العمليِّ. ورغم الافتعال المهمّ أن تبدو طبيعية. وانبذ المُنَظّرين والنظرياتِ والتأويلَ. لا وقت للتنظير. وقت الفراغ مخصّص لك. تعلّمْ أن تحبّ نفسك، أن تدللها... يمكنك السفرُ للاختصاص بهذا العلم. مضى علم النفس وحلّ محلَّه علمُ حبِّ النفس.

- وقت الفراغ مخصّص لتباهي الرجال بالرجولة والإناث بالأنوثة، والشراب بالكؤوس، والكراسي بالجلوس. حتى الوحوشُ تعرِضُ الذكورية للإناث. وفقط في حالةٍ بشريةٍ تُنَمّى وتعرضُ ذكورية من أجل ذاتها... أليس حبُّ الرجلِ رجولتَه مثليةً جنسية.

- لا بأس أن نضيفها إلى تعددية الأسماء. وهي تنوّع، وتعددية ديمقراطية مقبولة في عصرنا. وعليك أن تقبل أن المهمين يحبون الأهمية، كما يهوون النظر شزراً إلى أي شيء يتحرك حين يهمسون. وتتبع الهمسَ قهقهةٌ واثقة. كما يهوون تلبيس الترّهات زيّ الحصافة، بالصوت الواثق والنبرة والنحنحة، وأعتقد، وفي الحقيقة. ويتجنبون الموقف كالوباء. ويحذرون من لوثة التضامن ومن شبهة العطاءِ إلا لأغراض النجومية. ويروج ذمّ الانحياز للحقيقة كأنه تحيزٌ. ولا بأس بالقول إنه من نافل القول. ولا بأس بالإضافة أنه من نافل الإضافة أن التحيّز سخافة.

- لا يمكن فعلُ شيء إذاً.

- يمكن تجديد المفردات وتأبيد دلالاتها. يمكن التملّصُ من شُبهة المألوف بما يبدو غيرَ عاديّ، ولا بأس أنه ليس ذا بالٍ. يمكنك أيضاً إغداق المساواة بين التسميات على عالم من تراتبية المسمّيات. ويمكنك التغيير وخلق عالَم جديد بإحلال الهويات والصور محلَّ البشر، والتعبير عنهم محلَّ تعبيرهم، ثم

تمثيلها في اللغةِ، في اللافتاتِ، في البرلمانِ، في العرضِ، في المشهدِ، في زمن البثِّ، في لون المذيعاتِ، في الألوان المتّحدة وفي اتحاد الألوان... جميعا تُكَنّى لياقةً سياسيّة. وتيمّناً تسمّى تعدديّةً ثقافية.

- بعد كل ما تقدم، عن الروايةِ الكبرى، وكل ما تأخر عن النظريةِ لم ترث الحريةُ الحتميةَ. استبدلها التدبُّر والجدارة. فتمخّضت الإدانات عن رواية صغرى، وسردية تجمع ما تبقى من حقائقَ منتقاةٍ ووقائعَ انتقائية. نُظِمَت لأنها لا تُقَدَّمُ دون خيط ناظم. وكأننا «لا رحنا ولا جينا». دُشِّنَ عهدُ الرواياتِ المقنَّعةِ والطموحات الصغيرة. العقائدُ نبِذَت، ولكن أصبح الربحُ عقيدة. صار التحلّل دنيوية. والعدميةُ حملت رايةَ التنويرِ. وكما الدين قسَّمت الدنيا إلى نور وظلمة. وفي المقابل تجدّدت روايات الخلاص.

- هذا حال مجتمع الانجازات والبراعة والشطارة. وعليك أن تختار بين عقيدة مقنعة كأنها ضدّ العقائد، وعقيدةٍ عقيدتُها العقيدة.

- وطبعا مائة يدّعون أبوّةً للنجاح. للفلاحِ مائة أب. لتملُّق السلطان ألف جدٍّ. وللمالِ الطائفةُ التي يريد. وللجاهِ العشيرةُ التي يختار. أما الحرية فعادت كالحقيقة يتيمةً مرة أخرى.

* * *

لا أذكر متى

حين تبدّدت الرواياتُ الكبيرةُ
رسبت بقايا أمثولةٍ في الروح
تحزنني على جيل ينمو بلا أوهام. . .

أعزّي النفسَ أنه حين قضت
مضى ما كان يدفعني
للّقاء طوعاً بما لا أحبُّ
ولصحبة من لا أطيقُ
وهذا الأهمُّ
ولّت الأيام التي خبّأت عن هشاشة النفس ما يؤلمُ
وبعضَ ما يجري في الدول
إذ كانتِ النفس تأبى أن تراها

نوافلَ، أو وسائلَ
أو صغائرَ
يبرِّرُها الهدفُ الأعمُّ
حين قمعَ العقلُ ضيقَ نفسي
مستكثراً عليَّ الشعورَ
أن عشرةَ البعضِ هَمٌّ. . .

في حينه أنَّب العقلُ النفسَ والذوقَ
عيّن نفسه قيِّماً على الغايات
وبصفته وليَّ الأمر
وسم الشعورَ بالظلمِ أنانيةً ومزاجاً وضيقَ أفق
كان العقلُ معتدّا
وكان الحصرمُ
يحسب مِزَّه الذاتيَّ خمرا
فخلطتُ ما بين التخمّرِ والفجاجة
وما بين التعتّقِ والبغوِ
وحين استيقظتُ يوماً غنيَّ الطعم

لا حلواً ولا مرّا
أيقنت أني كنت غِرّا
يحسب الغرورَ نضجاً سالبا
وأدركتُ أن مزاج النفس من مزايا البشر
وغدَت نفسي معيارا
لا آملُ خيراً في من لا تحتمِلُ
صار يهمّني الشخصُ قبل الوعظ والمجادلة
وقبل السيرة المقدّمة
وقبل الإنجاز العلمي والثروة، وقبل المواقف المعلنة
صار يهمّني مثلاً إذا كان الفردُ هذا
يدّعي لكل مسألة إجابةً أم يقرُّ بجهلِه حين يجهلُ
أيتواضع فعلاً أم يتواضع بالإنابة؟
يرى الهزلَ مثلاً في نفسه وفي الأشياء
أم يمارس «التمتّع بروح الدعابة»؟
يصطنعُها مثلاً بروايةِ النكتِ
ويأخذ نفسه سرّاً بجديةٍ قاتلة
أو يشهر غباءَه في العبوسِّ

حين «يعتقد»، و«يرتئي» في «الحقيقة»
ويحسبُ الهيبةَ تقطيبَ الملامح، والوثوقَ رفعَ الأنف
كأنه يشمُّ بيضةً فاسدة
أيرى فعلاً إلى المظلوم أم يبلِّدُه قلبٌ أصمُّ
هل يتمتّع بحساسية للإهانة
أم تنزلق عليه مثلَ حبّات المطر
تعلق كالرذاذ
ويمسحها فتختفي على الأثر
أهو مقتِّرٌ يحصي الأنفاسَ
ويزهِقُ الروحَ
أم كريم النفس والبذل
أيحبّ ويبغضُ
ويؤثّر به ألمُ البشرِ
أم مبرمجٌ نحو الهدف
مُحَوْسَبٌ ضدّ المشاعرِ
أمحسوبةٌ خطواتُه ضدّ العفويةِ، ومعدّة لمقاومةِ التردّدِ
هل يصادِقُ، ويعرف قيمةً للصداقة

أم يمتصّ منفعةً من عظام العلاقة

لا أذكر هل أدركتُ
أم أحسستُ
أن الهدفَ والنيّةَ ليسا تفاصيلَ
وأن الأعمالَ ليست بالنتائج
ومذ أصبحا عندي المِعيارَ والقضيَّة
صرت أعلمُ أن من ترفَّع عنها وادّعى موقعا
ما وراء الهدف يتجاوز النيَّة
برهن في كل تجربة ذاتِ معنًى، وعاد وأثبت أنه تدنى

لا شيء يبرِّرُ وهبَ وقت
لمن لا يجسرُ غيرُ الكلامِ بينه وبين ما يقول
وليس ما يدعو لتضييع لحظة على شخص بلا روح
أو بروح آلة. . .

* * *

بالنسبة للحياة

من لا يحبُّ
لا بد أنه يحبُّ ابنَه وبنتَه
أسلِّم له وأقبَلُ
فسلِّمِي معي أنه لا يحبُّ الأطفالَ بالضرورة
إذا شخَّص جمالاً قد يشتهيه
وربما يشتري شيئاً جميلا
يتمتعُّ بالذوقِ الرفيعِ، أو يقتنيه
لكنه لا يميلُ للنفوس الجميلةِ
ربما يُتخَمُ بالشرابِ وبالطعامِ
وربما يحرِمُ ذاتَه أو يُحرَمُ
ولكن لا يحسُّ بطيبِ النفسِ والكرمِ
ولا بدفء العِشرةِ
من لا يحبّ لا يكرهُ التقتيرَ

لا تجتاحه رائحةُ البحرِ عند الغروبِ
وضجيجُ الموجِ لا يهزّ له كيانا
كما كان يفعِمُنا على شاطئٍ فارغٍ من البشرِ
ونحن مخدَّران بالماءِ والرملِ
ولا يدمعُ للأفق المخضَّبِ في المغيبِ
ولا تغسلُ الدموعُ عينيه
عند لقاء الشمسِ بالبحرِ
من لا يحبُّ لا ينتشي في أوّلِ المطرِ
حتى لرائحةِ الترابِ
ولا تتمكّن منه مرارةُ القهوةِ
ولا عبقُ المَزارعِ في المساءِ
ولا تنبت على جلده بشائرُ الخريفِ
فيرغب بتنفّس الدنيا دفعة واحدة

من لا يحبُّ لا يفهمُ
كيف يدندن صديقان سوية أغنيةً بين الحواجز
في الطريق من رام الله إلى القدس ليلا

لعبد المطلب مثلاً رحمه الله
فيبذلان جهداً في تخشين صوتيهما
«شفت حبيبي وفرحت معاه،
كان وصل جميل، حلو يا ما حلاه،
حلو يا يا محلاه، حلو يا يمحلاااااه،
شفت حبيبي»

من لا يحبُّ
لا يحبُّ الحياةَ
أو يحبُّها بطريقته فقط، ولكنها لا تبادلُه الحبَّ
لأن طريقتَه ليست طريقتها

من يحبُّ يفرحُ ويغضب
ومن يحبّ يعرفُ قيمةَ الحقدِ، ونادرا ما يحقدُ

من يحبُّ يحيا بحبٍّ، هذا يصحّ بلا ريبٍ
أما من يعيدُ مكرِّرا

أنه يحبّ الحياةَ بينما يفضُّل غيرُه الموتَ عليها
فلا أقطعُ أنَّه يحبُّ

سألتني مشيرةً بيدها
إلى التلفاز بسخرية:
أليس محبّاً للحياة من يحتفي
حينما يُقصَفُ البيتُ القريبُ
وإذا كان ألمُ الآخرين مؤامرةً
تحاكُ على فرحه
أليس بالجذلِ تُفشَلُ المؤامرةُ؟
أجبتُها:
ربما، لا أدري، الله أعلم...
عرفت قوماً اعتبروا حبَّ الحياةِ موتَ النفوسِ
يعتبرون شرطَ الحياةِ سماكةَ الجلد
وشرطَ التمتعِ تبلّدَ المشاعر
أخذوا على المظلوم شعوره بالظلم
وعلى المكلومِ حتى الكلامَ

وعلى المغبون رفضَ والهوانِ
والإباء وحسّ الكرامة
فحياة مع هذي النوافلِ تعكّرُ عيشَ نفسٍ
تحسب نفسها حيّة لأنها طافية. . .

وربما اختلط الأمر علينا
ما حسبناه حبَّ الحياة
ما كان إلا وقوعاً
في حبِّ تجريدٍ
ففكرة الحياة كفكرةِ الموتِ فكرة
وما ثقافةُ الموت إلا توأمٌ لثقافة العيشِ
وكيفما قلَّبتِ وجدتِ للقفا وجها، وللوجه قفا. . .

فكرةُ المعروف ميّتةٌ كفكرةِ النكرة
ويهنأُ بالرضى عن نفسه دون انقطاع
من لا يعير حياة الناس فكرَه
يهمُّه أمرُ «ثقافة الحياة»

والثقافةُ في العرفِ هذا هوية
و«معنا أو ضدنا»، وحدود أهلٍ وعصبية
وما أدراكِ؟
ربما الثقافةُ طائفةٌ، كالمثقف من ثقيف
أو ثقُف فأحبَّ ثقافَةَ الحياة
ولكنه اغتال الحياءَ حيثما ثقِفَه
أو ربما كانت مجرّدَ لون بشَرة
أو إعجاباً بنمطِ عيشِ بعضهم
لا تعنيه حياة غيرهم
إذ ترفعُهُ عن حياة الناس وعن الحياةِ بعينها
ثقافةُ الحياة. . .

* * *

اقتراح لمشهد الختام

حين صمتت شهرزاد وانتهت الرواية
وعاد جمهورُها فرادى
منهم من صار ناقدا
ويصِرُّ أنه كان دائماً هكذا
وأنه حين لاحقَ النقَّادَ كان مرغما
ويقسمُ أغلظ الأَيمان
لا وشى ولا افترى على أحدٍ
وحين كفَّر من خالفه الكلام
وخوَّن من عارضَ النظامَ
كان ضحيةً كالبقية. . .

ومنهم من قفز إلى مواقع
كان شَيْطنَها في البداية

صحيح أنه لم يمتْ
ولكن أرسلَ غيرَه ليموتَ في قتالها
وتباهى بعدد الشهداء،
ذاتَ يوم كان التباهي بالشهداء علمانيا . . .
وإذ شدَّ الرحال إلى الضفة الأخرى
أدهش الناس بيُسر انتقاله
فتبيَّن أنه تقلَّب في مكانِه
بدّلَ المواقفَ في ذات الأنا
لازمه احتكارُ اليقينِ
ورافقته قسوةُ الإدانةِ !
إذ ما زال يكفِّر خصومه
خصومُ اليوم من كانوا رفاقُ الأمسِ
وهو لصيقُ المُطْلقاتِ
ولو كانت عكسَ المطلقاتِ السابقة،

صاحبنا نسبيةٌ على رِجليْن
لكنها تحملُ مطلقاتٍ حيثما حلَّت . . .

ومنهم من لم يكتفِ بخدمة الحكَّام
مدحاً وإطراءً على مذهب الأعوانِ
بل بَزّ أسيادَه
وزادَ في شرحِ الظروفِ والمبرراتِ
واستهجن اتهامَه بالخوفِ والتنفّعِ
فهو مبدئي، ولكل مقام مبدأ ومقال
صار يعادي من يبادلُ أسيادَ أمسِه التحية
وينظِّر لخصومِ ماضيه بنفسِ الحماسِ
ويعلك تراكيبَ الجمل بنفس النَّهَم
ويجترّ العباراتِ الجاهزةَ بنفس التَّوق للسجال
بفضل جهدِه المباركِ اكتسب العقلُ سمعةَ الزانيات. . .

يبدو تنقُّلُ المأجورِ بين الحاكمين
من تقبيل يدٍ إلى لعق مؤخرة
إنسانياً في المقابل
فهو للتأجير فقط وليس للبيع
والمواقفُ أحذيةٌ يطأ بها أو يمتطيها
والقلم وسيلةٌ ناهيك باللسان

فهو يسلِّمُ بلا جَدَلٍ
أنّ دبجَ المديحِ والهجاءِ فعلُ زَجَلٍ
ويجوز قلبهما بيُسر مع تقلّب المراحل
ويُسمَحُ بالتغيّرِ مع تبدّلِ المواقع
وبالتعصب رغمَ الوقائعِ
فهو لا يدّعي على كل شيء جوابا
لا التحليل في العتابا
ولا الموقف في الأهازيج
ولا التنظير فيما بعد للبدائل. . .

أما صاحبنا فمنظّرٌ لمبدأ
قناعاتٌ فقط ومبادىءٌ تجري مع التيار
ولا يلائم الكلام، بل الموقف كلَّه للمصلحة
لا ينحني للرياح كالأشجار
بل كالخشب ينكسرُ
أو يطفو، فتحملُهُ الموجة القوية. . .

منهم من اكتشف أن في نفسه يقبعُ

رجلُ أعمالٍ صغير
ينتظرُ الفرصة المؤاتية
وها هو يحقق النجاح والأرباح
منذ أولاه بعض العناية
نادماً أنه لم يفعل ذلك منذ البداية

ومنهم من غادر التجوال في المزاودات
فعاد طائعاً إلى بيت أهله
وتزوج من ابنة عمه

ومنهم من مضى
ومنهم من ينتظر

تحسُّباً على هذي المشاهد عدتُ أستحضرُ فكرةَ الموتِ
كي تمسخَ زَهْوَ الكذبِ
وتقزِّمَ مشهدَ التزويرِ

صارت فكرة الموت ملاذاً من اغتيالِ الحقيقة
سئمتُ المجادلةَ العبثيةَ
تعزِّيني فكرةُ عجزِ الخداعِ أمامَ السنِّ والمرضِ
وإذا كان هذا عزاءً، فهو يصلح في كلِّ حالة
وما يصحُّ لكلِّ التعازي لا يعزي
ويقدم دليلا آخر على العجزِ

على كل حال، لم نعد نلتقي إلا في الجنازات
مرةً في العامِ أو مرتين
بعض هذا الجيل يدفن بعضَه الثاني
يحلُّ بعد النحيب وجومٌ
وصمتٌ ثقيلٌ وبعضُ التأمّل
ويتبعه كالقدر النقاش الفاني
نقاشنا جسدٌ بلا روح
نقاشُ جماعةٍ توارت
جثمانها ما زال يتوسَّطُ مجالسَ العزاء

لم يوارَ الترابَ
السجالات عقيمة
والنتائج بائسة، وإن كانت وخيمة
صرت أصمتُ، أو ألوذ بالصمت
فسيّدة النقاش هنا حالةٌ نفسية
وتصفيةُ حسابٍ وقضايا هوية
وكفى الله المؤمنين السجالَ
وأنا أدّعي تواضعاً أني أعرف القصة الكاملة. . .

يمكنني مثلاً بدل الجدالِ أن أمشي
فقد نصحني الطبيب بالمشي
وهذا عُمْرٌ خطيرٌ كما قال الطبيب
حسنا. . . لا بأس أن أمشي قليلا

* * *

مكتبة
t.me/t_pdf

جائزة ومرْتبة

باسمِ البلد، وبالنيابةِ عن لا أحد
بدل الكثير تحديداً
بدل العمومِ على وجه الخصوصِ
أُعِدَّ حفلُ التكريمِ
عوَّض عليٌ تبرُّمَ الدنيا بزيارة لعالمِ النجومِ
حلَّ الفوزُ بالمرتبة محلَّ الفوزِ بالدنيا
وفي هذِهِ المرّةِ نابَ حتى عن الفوزِ بالآخرةِ
صار التنافسُ أفيونَ الشعوبِ
والمراتبُ فَتَكَتْ بالثقافةِ
انقضى حُكْمُ العهودِ، وذوقُ الزمانِ الطويلِ
وحلَّ الاختيارُ في القوائمِ القصيرةِ
وتصنيفِ الكتّابِ والعازفينَ

كما في لعبةِ التنس
في العشرةِ الأوائل
عن الخُبزِ يُستعاضُ بالاعترافِ
وعن الحقِّ ينوبُ حقُّ التمثيلِ
وتغني عن الإنصافِ موهبةٌ
تحظى بودِّ العالم المتمدِّن
سامَ الوسامُ فارسَه
أقْطَعَهُ تمثيلَ الهوية
وولّاهُ تجسيدَ القضية

وأغدق عليه بتذكرة للكوننة، وبتأشيرةٍ للعولمة والعالمية. . .

يبقى لعليٍّ أن يفرحَ بالإنجاز هذا. يُؤْذَن له أن يزهو بهوية تجمعه بمن نال الهدية. ولكي يكونَ تمثيلُه ممكناً يحتويه الانتماءُ.

دون سابق إنذار راح يروِّج للانتماءِ حملة لواء الفردية، إذ جلب الفائزُ كما يدّعون فخراً للقبيلة، وشرفاً في لعبة كرة القلم. عاد بمجدٍ في فن السلة. ورفعَ رأسَنا بين الحضورِ في أدب الشبكة.

والساخرون من الهوية عادة دعوا للزقزقة سوية في سرب المحتفين بالهوية. . . أقام عليٌّ جوقةَ استهجانٍ بلغة اللياقة السياسية. وَسَمَت الجوقةُ التحفظاتِ على قرار الاختيار كعنصرية. بدا الجهدُ أصيلا.

وهكذا انْتُزِعَ الاعترافُ رغم العنصرية. ظهرَ نيلُ الجائزةِ كأنه تحريرها. وعوَّض تحريرُها في الاحتفالِ تحريرَ البلد.

وما إن زَجَّ عليّ أنفَهُ في العرضِ والطلبِ حتى وجدَ نفسَه أمام بناية بواجهتين.

المدخلُ إعجابُ المتحضِّرين، ورضى المانحين، والاعترافُ.

وداخله الحضارة الوثيرة، والأناقةُ المنمَّقةُ، والهويات الأثيرة.

والمخرجُ الصحراءُ والإقصاءُ والنبذُ، حيث تصبحُ الهويةُ تهمةً بذاتِها، ومعيقاً للتطور، وعقبةً كأداء، ومجرّدَ عصبوية.

إعجابُ المانحين (والمانحات لغرض اللياقة) اعترافٌ بقيمة العمل.

والمرتبةُ ترجمةٌ وتصريفٌ بالعملة الصعبة.

ولنيل ختم الجودةِ المرجوِّ تقلِّدُ الذاتُ صورتَها المحبّبةَ كما ترتسِمُ في خيالِ المُعجَبِ المنشودِ.

المعجَبُ المنشودُ بلادٌ باردة. وفورَ نيلِه نما للفائز وجهان.

غدا النجاحُ في تمثيلِ القضية مكافأةً على التحرر منها.

وجد عليٌّ نفسَه في حيرة. حين ينحني للمانح يمنحُهُ بطلُهُ مؤخرة. والعكسُ صحيح.

وللمؤخرة وجهان أيضا، وهكذا... فمتى يُصَفِقُّ؟

الفخرُ تعزيةٌ، وتسليةٌ لنفس عليٍّ، وفتاتُ كبرياء. لتشمخ الرؤوسُ اعتداداً، بمن عاد بجائزة له. فهي تصلح لهم بالانتماء.

الفخرُ بالمراتب الممنوحة من علامات الترقّي، أو هكذا يسوَّقُ.

وحيث يمشي الفوزُ يسري التفاؤلُ. إذا تذكَّر عليّ النسيانَ فسوف يحرِجُ المهرجانَ. ويولّدُ التشاؤمَ. وينغِّصُ الصفاءَ. ومثل أيِّ تطرفٍ يمسّ بصورةِ التحضّرِ.

التنكيدُ يفسِدُ الاحتفال. ويبعث على التذمّرِ. وفي أسوأ الحالات يدعو للتندّر. وتهمة التخلف جاهزةٌ، تجوز في من يستخفُّ بالمجازِ والجائزة.

المستخفُّ بالمراتبِ يقلّلُ من شأنِ الثقافةِ. . . ومن الذي يجرؤ على فعلٍ كهذا؟ الويل للأذن التي تسمع، وللعين التي ترى!

الرموز تكافأ بالرموز. ومانحها هو الحائز عليها. ترسمه سيِّدا لثقافة المقموع أيضا.

هو الحاكم والحكيم. ينصِّبُه التفوّقُ سيِّدا لمشاعرِ النقصِ.

كرمُهُ حفلة تنكرية لتعيينه مُحكّماً وحاكماً يحدِّدُ الرأيَ والذائقةَ، لعليٍّ ولأبنائه.

ويدرِّج الأعمالَ أوَّلَها وثانيها.

ويوجِّهُ أمانيها.

المنى غايتُها فيلمٌ يحظى بإعجابه، ومسرحيةٌ عن القضية، والتعايشُ والاحتجاجُ على التعايش، والفردُ والفردية، ومديح الأصالة وذمّها، ورواية عن الحرمانِ والكبتِ الجنسي، وشبق الجسدِ الأنثوي إذا كان

شرقياً، وحقوق الإنسان، ومعاناة المرأة العربية.

جميعها تلقى رواجاً لدى النقاد في فرنسا. وفي الملاحق الثقافية. وإذ يُغدَقُ الإطراءُ على من يُمَثِّلْنَ هويةً نسويةً تبقى النساء على حالِهِنّ...

بين يدي مانح الأوسمة، وفي حضرة العلامات التقديرية، وامتناناً لاعترافِ القوي بالهوية

يمسخُ المستضعفون حالهم وأحوالهم رموزا.

تُقَدِّم الرموزُ أشخاصاً طيبين بطعم الكاراميل، ليسهلَ مضغُهم، بنكْهةِ التعايشِ والتسامحِ وابتغاء الرضا ليمكنَ هضمُهُم، أو بحدَّة المشاغب المشاكس الذي يؤكد اختيارُه تسامحَ المانحين، وأخيراً بصلصة الأصالة لغرضِ التعدّدية والتسامح مع التنوّع كريادةِ المطاعم الإثنية. فالجوائز يَنُول بها الأقوياء ويجود بها أصدقاءُ الغزاة وشركاؤهم في التنوّر...

يروِّجُ الاحتفاءُ والتكريمُ أعرافاً خفيفة وثقافة ظريفة. وهذه تُغْني عن الموقف بوقفات لطيفة، وعن القراءة بإطلالة.

وتعوِّضُ عن تذوق الفنِّ بفنِّ حضورِ حفلِ الافتتاحِ، وعن تذوق الأدبِ بأدبِ ترقية الاحتفال إلى احتفالية.

يكفي الحضورُ، ومعرفة أسماء النجوم. وتصيُّدُ فرصة لإبداء اطّلاعٍ واسع يغني.

ويكفي إظهار المعرفة بالتعابير الرائجة والانفعال من كتابٍ لم يقرأ المتحلِّقون حولَ الكلامِ سوى غلافِه.

ولا بأس بالتقاط صورة مع شهاب عابر. وإن كانت الصداقة ضعفاً لا يليق بالشهبِ يكفي التظاهر رغم ذلك...

لا بدَّ في الرواية من ذكر المثلية الجنسية، بمناسبةٍ وبغيرِ مناسبة، وافتعالِ تفاصيلِ المضاجعةِ، وعنف الرجل العربي.

هكذا تسمو إلى سدّة الأدبِ العالميِّ.

ويشيدُ كتّابُ الأعمدة بالارتقاء لمستوى الغربِ، وبانتزاع إعجاب القلوبِ.

هذه المرة نال المكرَّمون أوسمةً جديدة على تجاوز المحلية، وعلى كسرِ القيودِ، والتحرّرِ من عبء القضايا ناهيك بالقضية.

تُنَالُ الجوائزُ لأجلها كي يكافأ تجنبها. والفضل في الحاليْن للبراعة في استثمار القضايا، وللنجاعة في تقديم البراعة كأنها إبداع...

تحتقنُ الآن الوجوهُ. فمهما بلغت سماكة الأقنعة بعضُ الجروحِ مفتوحٌ. عقْدُ النقص ملتهبة. ومشاعر الذنب لحوحة. السجالُ مشتعل. والأصواتُ مجروحة.

رغم نيلِ الحظوةِ لم يدنُ تجاهلُ الناسِ من الإنسانيةِ
وإنكارُ المحلي بحد ذاته لم يفرِّخْ عالمية
وإعادة صياغة «نحن» لإثارة إعجابِ (هم)
لا ألَّفَ تفردّاً، ولا نظمَ الناسَ أفرادا
جمعَ جمهرةً ممسوخةً ترفعُ الفرديةَ شعارا
فرَّخت «أنَوَاتٍ» بصيغةِ نحن
وآخرَ متفوقاً متغولَّ الـ«أنا»

* * *

عفوية

أمارسُ انتظارَها في حجرتي وحدي
أعِدُّ التفاصيلَ كما لجولة المفتِّشِ
في المدرسةِ الداخليةِ

يقترب الموعدُ
أتظاهرُ بالانشغالِ بالكأسين، بالكرسيّ، بترتيبِ السريرِ
بالقهوة التى غُليَتْ وبردَتْ
وسُخِّنَتْ رابعَ مرة
والبابُ مركزُنا جميعاً
أنا والباب في مكانه
نتوَتَّرُ معاً، ننبضُ سوية
ورغمَ طولِ التوقّعِ

وخفّة نقراتها علينا
يصعقني إعلانُها الخجولُ
عن وصولها
في صدري يدوي
صداهُ المهولُ
كان الانتظارُ شحناً لقلبي

حبذا لو فُوِّتَ الترقّبُ
وجاءت دوماً في غير موعد
لا يسبقُ المفاجِئَ توتّرُ الانتظارِ
لا يكهربُ، لا يَصعَقُ،
والباب لا يخفقُ
فتحُ البابِ عفويّ وعاديّ
تبتسمُ فقط وأرتبكُ
ويغيبُ دورُ البابِ والكرسيّ
والكتابِ والكأسين
لم أنسجْ معهم صلاتِ

لا لقطعِ الوقتِ، ولا لإحصاء اللحظات
إذ لم ينتظروها معي
أصبحتُ بعدَها أترقَّبُ أن تأتي مفاجأة
يومي العاديُّ صارَ حالةَ انتظار
وولجتِ الأشياءُ زماني
كلنا نتذكَّرُ، وكلنا نتوقَّعُ
وصار زماني انتظارها
وأي طرْقٍ على الباب
عابرٍ
يبعث في القلب صداها

الحب عندي
أن يدومَ العناقُ
حتى نتلاشى بين أيدينا
ويمتدُّ حتى تنبتَ له أجنحة
تحملنا فوق المدينة

وتحلق عبر الحدود
ترفْرِفُ دونَ اكتراثٍ فوقَ قواعدِ السلوك
وتطوي الهمومَ السقيمة والاهتماماتِ الرتيبة
وأن القبلةَ نسمةٌ
وللنسمةِ قلبٌ يخفقُ
وأن القبلةَ عاصفةٌ وأمواجٌ
وأن القُبلَ تموج بنا
ننشِدُ موجتَها العاليةَ لأنها تُغرِقُ
الحب عندي أن نمارِسَ هذا البحرَ النقيَّ
أن نخوضَ الأثيرَ النديَّ
وأن نسترخي معاً، كما غرقنا سوية

الحب عندي غيرُ مُقَوْنَنِ الخلجاتِ
نبدِّلُ الشعائرَ في كلِّ طقس
إذا رغبْنا
وأن الدعاءَ إذا رُدِّدَ حِفْظاً
يُرَدُّ، لا يُقْبَلُ

الحب أن يسرعَ النبضُ
فلا أسمعُه بأذنيّ كي لا يعيق انسيابي
وأن الرعشاتِ بلا عنوان
كامِنةٌ في اللحظات
وفي المكان مخفية. . .

الحب عندي أنها
غيرُ مدينةٍ لغيري بتفسير
حين تحبُّ وحدتَها
ولا أدينُ بتبرير حين أحب وحدتي
إلا لها
وأن الحب لا يعلِّل نفسه
فهو ليس تهمة تثبت أو تُدفَع

* * *

نجاح

من يعشقْ نفسَه لا يكتفي
يطمعْ بإضافةٍ من غيرهِ
هجرُه أجدى وأهدى
من مبادلة الخيانة بالخيانة
وهي حتما قادمة
ربما ينكُثُ كلَّ العهودِ لكنه بالخيانة يفي
يبثُّ حاجتَه إليكَ إشعاراً بالأهمية
لستَ مهماً، لا تصدِّقْ
عليك فقط أن تدورَ لترسمَ دائرةً
دائرةٌ مركزها هو
امضِ! لا تكترث!

حسبه حبه الذاتي

دعْ عنك أنه لا يقنعُ!!

ما من ضغينة مخصوصة ضد الكرامِ

ولكن عصر الجدارة لا يحب الفاشلين

وإن كانوا كراما

المشهدُ ملكُ الترفيهِ

وقد يوجبُ الأخيرُ معصرةً للدموعِ ومآسيَ للتسلية

ولكن غالباً يرجى التفاؤلُ

ويُنشَدُ الفرحُ

يشيدُ المشهدُ بالفائزين إن كانوا كراماً أو لئاما

ويجزلُ الثناء للناجحين

ويتدحْرَجُ الضحكُ لنكاتِهِم المكرَّرة

ويهتز الرأسُ بالموافقة

ويحدِّق الإصغاءُ مهتما

بكل فَضْفاضَةٍ مُجْتَرَّة

ينطقون بها بتأنيّ الحكماء

وتروّي الفقهاء
ويُمْعِنُ في الإصغاء
ويبدي تفهُّماً لشكاوى شتى
عن ألمٍ في الرأس والإعياء وقلّةِ النوم
لا يستمع لها عادة
يضيقُ بها من غيرهم
وما كانت لتحظى منه، ولا باللوم حتى
أما لهم فيقترح حلولاً منوّعةً، منقوعةً ومغلِيَّة
المشهدُ يبجِّلُ السطوة
ويمجّد الثروة
لا تمييز، لا غبن أو حظوة
لمَ اكفهرَّ وجهُك واحتقنتَ؟
لا تبتئسْ، ليس الأمرُ شخصيا
بل هذه سنةُ العصرِ الحديثِ
- أعلمُ
ولذا أقسمتُ أمامَ قبرِ جدَّتي

أن أرابطَ عند القضايا الفاشلة
جَمْرُ أناشيد الطفولة يُحْرِقُ راحتي
أنفخُ فيه خوفَ أن يخبو
وأنتظرُ
أن يُزْهِرَ الإسمنتُ. . .

* * *

عن الحرية والضرورة

هذا كما يبدو أمرٌ صدر
يمكنه طبعاً أن يستعادَ
ويمكنُ أن يُعادَ إلى مَصْدَرِه
أن يُصدَّ، أن يُردَّ
أن لا يُنفَّذ أن يُرفَضَ. . .

وهذا زنادُ بندقية
وهذا إصبعٌ في يدٍ بشريةٍ
يمكن أن يضغطَ
أن يتشنج غضباً ولا يمتثل
أن يرتخي خوفا
فلا يأتي بحركة

أن يستريحَ كسلا
وهذه رصاصة أُطلِقَت
لا يمكن أن تُستَعادَ
هذه رصاصةٌ لا نراها
ندركُها من سماعِ الأزيزِ
فات أوانُ الرأيِ والرأيِ المخالفِ
حالما أُطلقت لن تعادَ

وهذا صدرٌ، لحمٌ وعظم
سوف يُخترَقُ
ليس بوسعه فعلُ شيءٍ
- وهذا موت!!
- لا
فالموت لا تراه، وإذا رأيتَه لن تعرفَه
الموت لا يُحَسُّ لا يُلمَسُ
لا يُقسَمُ لا يُجمَعُ
لا يُعَرّفُ بغيره

لا معنى له
فهو خلافاً للحياةِ ليس سوى ذاتِه
لقد رأيتَ، إذ رأيتَ اغتيالا
وما تراه الآن جثّة
كانت قبل هنيهة رجلا
صارت الهنيهة دهرا
وبعدها يعودُ الدهرُ عدماً

أنت الآن شاهدٌ، سوف تصير مشاهداً
أنت الآن حاضرٌ، وغدا تستحضِرُ
احضُر الآن، تنبّه، انظر إليه
وميِّز!!
ميز الآن بقسوةٍ بين الحرية والضرورة
بين الضحية والفاعلِ

هو الآن لا يشبهُ الخبرَ عنه غدا
ولا يشبه نسيانه بعد غد

له صورةٌ، شكلٌ ولونٌ، وصوتُ أزيزٍ وفرقعةٌ
وسقوطٌ ثقيلٌ وارتطامٌ
تسمعُ الوقعَ بصدرِك
وحين تسمعُ يسقط شيءٌ
من أعالي صدرِك إلى أسفله

ثم يغدو الطولُ أفقيا
ملامح مُمَدَّدةٌ داكِنَةٌ في البداية
ويفيض سائلٌ
أحمرُ فعلا
من الصدر والفم
وتغدو الملامح شاحبة
- هذه حياةٌ فُقِدَت
- لا
لا نعرفُ، لا نراها
بل كان شخصاً

كان فرداً سُلِبَت حياتُه
كان في الماضي حاضرا
صار في الحاضر ماضيا
أبٌ سُلِبَ من طفلتيه الأبُ
ألغي منه اليومَ الغدُ
نعرف أنه كان
وكان ممكناً أن يكونَ
وأنه لن يعودَ
وأنّه لا يستعادُ

* * *

لو تعرفين

لو علمتِ كم تسرينَ فيه، كم تبحرين
وأن الرنين يمعن فيه حين تضحكين
لو تعرفين حين يغيبُ كم يحلم بضحكتك
وحين يحضر لو تعرفين
يؤرِّقه أنه غداً لن يراك

غُلِبَ على أمره راضياً كي تفوزي
فترفق بك الدنيا
وتنعمي بغير ما حظي
(سوى ابنتِه التي
لن تحظي بها
أو بمثلِها)

ويطوي الفصلَ الأخير بلا نفاق
فيَمضي وهو مجهولٌ حين يقضي الله أمرا
والأمرُ مفعول. . .

نادرُ الوجودِ والتواجد
مقاومٌ للكيف والتكيّفِ
لو تعرفين بالزوال مجبولٌ
يكاد يندثرُ
لندرةٍ من مثله في عصره
رسمناك أميرة

سوف يُشهِرُ الفشلَ
لن يفهم بكاءَك
لن يتعقَّلَ
ولن يميّزَ دمعةَ الحزنِ الصغيرِ من دمعة الفزعِ
وجمالُك أصلاً يوجعُهُ
سوف يغَصُّ بعجزه أمام عجزِ الطفولة

وتكبرين إذا مسَّتْ عيونُه وجنتيْك
دموعُ الرجالِ مضرةٌ بالبراءة
توقفي عن البكاء، وسايريه
كفًّا يديك يرفرفان بأجنحة صغيرة
اجذبيه، صعبُ المراس
ادفعيه، لن تجدي المحاولة
لا تيأسي
فظاهرُه حَجرٌ، وباطنه زغب
صعبُ التعبيرِ سهلُ العبراتِ
صلبُ العود مكسرُه الحب
اسلبيه، صادريه، اسرقيه
سوف تسامحُك به همومُه الكثيرة
سوف تغضُّ الطرفَ عنك
استسلمَتْ منذ أيامٍ فقط
أقعتْ غير آبهة بجانبه
يائسةً من مهمتها
لن تكترثَ بتعويذةٍ غضَّةٍ من يَدَيْنِ صَغِيرَتَيْن

سياجا لسلامةِ العقل ولرغبة العيش
أنت له دنياه
صرتِ معناه الوحيد
مذ طلَّق ما ينبغي وفارق المجرّدات

* * *

حنين

بعد محاولات لا تحصى
للتخلص من «عبءِ الماضي»
والالتفاتِ للآتي
وبعد حسابٍ عسير للذاتِ
وندوات ودعوات
في «أزمة ال» وما بعد «ال. . .»
و«كل شيء إلى أين»، «ولا شيء إلى متى؟»
وأوراق عمل في «ما العمل؟»
فقد الزمانُ الأملَ بالبنطِ العريضِ
بين البحرِ والصحراءِ
أن يجدَ له عملا

فتعوّدَ الانتظارَ مثل مريضٍ بلا واسطة
أزمنَ وهو ينتظرُ
عند الطبيبِ وفي الصيدليةِ
وفي مكاتبِ الضمانِ
بعد كل وصفةٍ، وقبل كلِّ فحص
وتعلَّمَ أن يصبرَ مثل سائقِ مصعدٍ
وهي مهنةٌ باقيةٌ في تلك النواحي
ثم تعلَّم الصبرَ على الصبرِ
وتدرَّب أن ينكفئَ
حين تعمُّ حولَه الفوضى على وجهِ الخصوصِ،
فالانتظار هنا لم يحظَ برتابة الدول الشمولية
ولا بنظام الطوابير
للانتظار لونُ البهدلة
وما لَبِثَ أن احترفَ العادةَ
صارَ الزمانُ ناطورَ المكانِ
وهو طبعاً لم يستمرئِ المهنة

ولم يَخْتَرْها بملءِ الإرادة
وريثما يجدُ له حرفةً، أو يتعثرُ بوِجهةٍ لهُ صدفةً
عمل الزمانُ بواباً، عجوزاً عابساً، على مدخلِ الذاكرة
يستلمُ حاضرَ الزائرين كالمعاطف
كالمظلات المبتلّة بالمطر
ويسلِّمُه لهم حين الخروج
وصار يعمل في وقتِ الفراغِ
ساعةَ إيقاظٍ عند الرتابة ينبّهها لتجفلَ
ولا تجد شيئاً، فتعودَ إلى ذاتِها أو سباتِها
ينقرُ بالسبّابة وبالوسطى على صفيحِ المرحلة
فترنُّ أيامٌ معلقةٌ في عنقِ الزمانِ العالقِ في المكانِ
كما ترنّ أجراسُ القطيعِ إذ ترعى
وإذ يتوقفُ الثورُ كي يلقيَ نظرة للأفقِ
لا حِكْمةً ولا تأمُّلاً، بل هكذا، بلا سبب
أو كي يفرِّقَ الذبابَ بالتلويح بالذَنَبِ
أو كما تصدحُ بلا معنى أجراسٌ صينيةٌ معلقةٌ

على مدخلِ بيتٍ في حيّ صحراوي
هزَّها نسيمٌ عَبَر الظهيرةَ
وانسلَّ نادما
معلناً بلا داعٍ وجودَه
فما دام لا يخففُ الهجيرَ
على الأقلِّ يُسمَعُ،

عمل الزمان آذِنا لحنينها
حين يعتمل
بين الإفراطِ في توسّله والنسيان والعدمِ. . .

وهو لكثرةِ الوقتِ وندرةِ المعنى يتقيدُ بالتعاليمِ
يتمسكُ بالحذافير
يتشدّدُ بالتوافه
ويشحذ حزمه في الهواءِ، وفي تفاصيل الهباءِ. . .

لا يأذن الحارسُ لعبيد الحنين وأسياده
من مستخدِميه وخدّامه
ولمن هبّ ودبّ بكتابة السِيَرِ
فيَكْثُرُ الخداعُ للالتفاف على منعها بالحكاية
ولافتةٌ تُرفعُ في البداية
أن أيَّ تشابهٍ بين الحقائق والوقائع
أو بينَ الواقع والرواية
محضُ صدفةٍ أو خيال. . .

وللمنع أسبابٌ
وفي الحظر وجاهةٌ
فقبل تحديدَ سقفِها واتّضاح القاع
يُحظر دفقُ الذاكرة، يُمنَعُ دلقُها
خَشْيَةَ تداعي المبنى برمّته
فقد تتدفّقُ الذكرياتُ كالسيلِ
أو تتداعى الأفكارُ

وللأمانة، في الخشيةِ بعضٌ من وجاهة
فقد ينوءُ القارئُ المسكينُ
تحت حملِ رومانسيةٍ رخيصةٍ
أو يُصابُ القلبُ الضعيفُ بمكروه
لِوَطْأَتِها على الذوق المعافى. . .

وتقضي الوظيفةُ أن ينيرُ أوّلَ الطريقِ
ويرشدُ الزائرَ من البابِ للمصعدِ
وإلا فالتجوُّلُ في عتمةِ المدخلِ يجري على عاتقِ الزائرِ
وملَكَةِ الرؤية ليلاً كالقِطَطِ
أو بناءً على تخيُّلِ ما لا يرى. . .

الأدوار السفليةُ صمّاءُ مقفلةٌ
لا تُتاح للزائر الآدمي في يقظته
إلا إذا بذل جهداً صادقا
وكان ممّن يذكرون أحلامهم

يزورها في الحلم رغماً عنه
وبالخيال إن شاء
ليرى فرحَ تحررِ اليَدَيْن
لإلقاء التحية
والإمساك بتلابيبِ الحياةِ
وتملُّك الهواءِ والفضاءِ
ولمحاكاةِ الجمالِ
وللعناقِ وحمل الفُراقِ بالكفَّيْن
ووضع الحزن في الجرّة
ليرى الانتصابَ على القدمين
للجَرْيِ في الحقول الرطبة
فيلمع كالبرقِ حين يقشعرُّ الجسدُ
وليركضَ على الشواطئِ الرمليةِ
وعيناه تدمعان ضدّ الريح
وكي يركلَ المسلَّمات التي
لا تطيقُ ذاتها وأصحابَها

وذلك دون خططٍ لعالمٍ أفضل. . .

صحوُهُ الآن عاجزٌ عن استرجاع ضحك غير ساخر
وابتسامة غير قلقة
ضحكة ضاحكة
لا يخزها القلق من عبورها حتى وهي عابرة
حين كان حاضِرُها حاضرَ الزمنِ الوحيدِ
لا تفسح الأحلامُ منه مهرباً بأن السعادةَ حلمٌ بها
ولا تتيحُ لها مذهباً أنها وعدُ الخلاصِ العتيدِ
وأن شقاءَ اليومِ آلامُ مخاضٍ
وألم الولادة ليس ولادةَ الألم
ولا تُفسدُ الخيباتُ له مشربا
فلم يُدَسَّ بعدُ في الدنيا
أملُ الخلاصِ
كما يُدَسُّ السمُّ في الدسمِ. . .

وإذا كان الزائرُ محظوظاً
وطال انتظارُ المصعدِ
قد تقع العينُ على حزنِ البداياتِ
وإلا فعلى الزائرِ أن يفترضَ
أسّى بسيطاً دون تركيب
وحزناً بلا فقدٍ، بلا ماضٍ، بلا جزع من الآتي
بلا خوفٍ من الموت الأكيد
يراه في الأطفال دوما
فيحبهم ولا يلفتُ نظرَه
أن ما يثيرُ العطفَ هنا
شيءٌ رديفٌ لعجز بريء
كالعجزِ عن تجنّب أسبابِ البكاءِ
مثل وجع الأذنين والمغصِ والأصواتِ العالية. . .

وجمالُ الطفولة موجعٌ للنظر
لأنه يلحّ على الحب والعطف سوية

فإما أن يحضرا متلازمَيْن أو لا تكون عين بشر. . .

ومن يصعد يجد كلَّ بؤسٍ ناجماً عن أمل
أو ناتجاً من معرفة، أو مِن تزاوجِ اللعنتين
كَذَبَ هرقلُ
لم يكسرْ قيدَ المعرفة
ما زالتْ إلى الصخرِ مشدودة
وحتى يومنا ينهش النسرُ منها الكبدَ. . .

وختامُ الطفولة تذهُّنُ الفرقِ
بين الأنا واللا أنا
يليه حزنٌ وخيبة
ترسي الأساسَ لحكمةٍ
أن الفرقَ ليس بين مركزٍ وهامش
ولا بين الأنا ومحيطِها
فالبَوْنُ هذا يُجسَر بالعلمِ

أو بالسحرِ
ولا هو الفرقُ بين الأنا والهنا
إنه الفرق بين الأنا والأنت
هنا تُمزَجُ دهشةُ الاكتشافِ
بالحب
ويتضافرُ حبُّ الجمالِ والفنِّ
ويحلُّ الخوفُ من الحسمِ
من حريةِ القرار في الانزعاج والقلقِ
وفي ابتداع ألفِ وسيلةٍ للتهرّبِ
ويبقى الحسمُ بين الخير والشرّ شرّاً لا بد منه
في حالة البشرِ. . .

ترى الدهشةُ الخيبةَ الأولى بأمِّ العين
وهي تمرُّ مُطْرِقةً تُجَرْجِرُ أذيالهَا
مثل زميلٍ دامع
عاد من لقاءٍ بمدير الدائرة

تخلَّله ما لم يخطرْ له
تخيَّلَ، وأطلق العنانَ
وكوفئَ الجهدُ بالتحذير إذ تجاوزَ الصلاحياتِ
فعاد خائباً يُجَرْجِرُ الصدمة
لا يعيرُ زملاءَه التفاتة
هكذا تستحيلُ الدهشةُ غصةً حين تعي الحدودَ
حين تكتشفُ أن الرغبة
لا تحققُ ذاتَها دونَ عونٍ وحدَها . . .

يفترق الحزنُ عن الألمِ
ينفصل الفرحُ عن اللذة
تُوَدِّع العاطفةُ حيناً الحسَّ
كي تعودَ إليه إذا التقيا في الطالعِ الحسنِ
وتفلت الأفكار حيناً من مصادرهاِ
يرفرفُ الخيالُ
يتجاوزُ الحدودَ

يطلِّقُ الدنيا
يفتح الأفقَ على مصراعيه
وإذ يتحدى نطاقَ الوجودِ
يُبدِعُ حاجاتٍ جديدةٍ
وحنيناً لحزنٍ مألوفٍ ولفرحٍ معروفٍ

حين يغدو الفعلُ خلقاً تضعفُ النفسُ
وترنو للخلودِ. . .

ينظمُ الخيالُ الحابلَ بالنابلِ
يصوِّرُ البحرَ بالبرِّ
يخلط الفن بالسحرِ
ويستحضرُ الخمر بالأمر
أو يندمجُ بالحقيقة في الوهم، في الحب، في حب الجمال
هنا الرغبات ما زالت أمانيَ

والأماني لا تضرّ
ليس لها تابعية
ولا تدّعي تغيير العالم. . .

لا يكفي الحبُّ الجميعَ ولا الجمالُ
حتى القناعةُ لا توَزَّعُ بالتساوي
يتفاوت حتى التعويضُ عن التفاوتِ
وحينما تُصاغُ العقائدُ
فتحتضِنُ الأماني
يلحقُ الضررُ
ولا بأسَ
فقد صار اسمُها عقائدَ
لأنها ترى في بعضِ الضررِ فائدة
وهكذا، بدل توزيع الخيرات
تُوَزَّعُ الدنيا زوايا للنظرِ. . .

حبُّ القريبِ لا يستبعِدُ كرهَ الغريبِ
ويلقى الحقدُ عندَه تفهماً
إذا كان رُهابُ الغريبِ مصدرَه أو رهبةَ الغرابة
هنا، يلبس الفشلُ الطَموحُ جبّةَ الفكرِ الحميمِ والانتماءِ
وتُبرَزُ أوراقُ الأصلِ الثبوتية
هنا يقبعُ انعدامُ الكفاءة خلف التذكيرِ بالهوية
هنا تلجأُ النذالةُ للوطنِ وللطائفةِ
كان فقدانُ الأهليّة خلفها يتلصّصُ
صار على الأكتاف محمولا
وهو يهتفُ
وها هي الشرور تخفي وجهها
دونَما حرج
خلف الأصولِ فتُعذَرُ. . .

سأل عليٌّ نفسه
إلى أين يمضي بالتداعي الحرِّ

فما حَطَّ هنا صدفة
وما أزاح الآنَ ولا الأوانَ
ولا بَحَثَ خلفَ الزمانِ وتحتَ المكان
إلا للتحرّر من تداعياتِ العقلِ
جاءَ يَنْثُرُها فينظمها الخيالُ. . .

وإذْ أَفْلَتَ من قبضة الفكرِ
استرجعَ المشاهدَ
رأى شريطَ حلمٍ عادَهُ في رؤى الفجرِ

صراعٌ مع الأهلِ والمدرِّسين
وصِبا يصرُّ على السراويل الطويلة
ليخفي جراحاً وندوباً بلون الحارة
فيبدو أكبرَ من عمره
ويبدو يا للحماقة محافظاً منذ الطفولة
جروحٌ عميقة، وحمّى مديدة

قبلةُ أمٍ بِطَعْمِ البابونج
ورائحة نار المدفئة
وعلى مِنْضَدةٍ قربَ السرير ضماداتٌ نظيفة
وتفاحةٌ كاملةٌ حمراء له وحدُه
وكتابُ درسِ القراءة
وواجباتٌ جيء بها
كي لا يخسرَ الأشهرَ الأولى
من عامِه الأولّ المدرسيّ
حوله أخوات
يَبْذُلْنَ جهداً خالصاً كي يبتسم. . .

في طريق العودة تنحني أحلامه المتعبة
إذ تحتُّ الخطى صعوداً كالسلحفاة
على معدة خاوية وحقيبة ملأى
إلى بيوت من الصفيح
رابضةً على سفوح حميمة، أو ربما ترعى

وفي الحالين تنتظرُ. . .

في العودة من السينما مسابقة
هو وشقيقه يجريان
وديكُ السُمَّنِ والقبّرة
وفرح خبّأاه في شِعْبٍ يتسلَّقُ التلال
في طريق العودة المختصرة
مشحونيْن بالأفلام والمشاهدِ
أو سعيديْن بنهاية سعيدة
لهامفري بوغارت ومارلينا ديتريش
والمساءُ يَعْبقُ بالقصائدِ والمواقد
يتوقان لعشاءٍ لأمٍّ تُحمِّصُ خبزا
وتسخن بقايا غداء
تباركُه فيطعمُ ألفَ نفسٍ
ووالدٌ يروي شبابَه في المساء
وذكريات آسرة

عن مشاريع التحرر والبناء
ويرسم فردوساً آتيا
وأوهاماً شهيةً بِطَعْمِ القضية
وبوشكين ولوركا ومایاكوفسكي
والمتنبي وأبو العلاء
ونظريات علمية ومادية تاريخية منظومة في عناقيد
وتوقّعات لوّنَتْ بلونها أحلامَه
يقدّمُها لهُمْ واعظا
بسروالِ بيجاما وكنزةٍ داخلية
قارئٌ نهمٌ يؤمنُ دفعةً واحدة
بالعلمِ والتقدم
وبالحرية والعدالة
ويَمْقُتُ الاستعمارَ والعنصرية
ورجالَ الدينِ والخرافاتِ والشعوذة. . .

في كل منعطفٍ يلمحُ عليّ ذاته

يهيمُ على وجهه في المعابر
فاحصاً متفقدا
تائهاً كالقط بين الخيارات
يسيل الكلامُ من كلِّ فتحةٍ في رأسه
في الزوايا وعند المداخل
ملامحُ لا تؤدّي إليه، ولا تدلّ عليه
ويستغربُ كيف صار منها ما لديه وما عليه،
رأى ذاته شخصاً ليس يشبهه
والشخص منهمكٌ بكل شيء، بلا شيء
مهمومٌ عن ذاته لا يراها
لا يرى ذاتَه كيف تبدو
يفكِّرُ حين يشتغلُ ماذا عليه بعد أن يعملَ
ولا يفكِّرُ بما يفعلُ
ليسَ بينَه وبين ذاتِهِ مسافة
ولا زاوية للنظر
الآن أدرك لماذا جرى له ما جرى

الخفةُ هي غيابُ وعيِ الذاتِ
رغم ثقلِ المهمةِ
وبغضِّ النظر عمّا يؤدي
يبقى غيابُ وعي الذات بالأصلِ
أصلَ الحماقة. . .

بانفراجةٍ في الجبين، بغمازةٍ في الوجنتين
تنقشع سحابتُهُ، وتتبدّدُ الكآبة
ذاتُه فجأةً تذكِّرُهُ به
يستجمعُ الابتسامَ
لقد وقعَ الحنينُ على يدٍ تجسُّ يداً ساخنة
رأى حباً خجولاً أحمرَ الخدود
يشيحُ النظرَ من فرط الورود
وفماً وشفتيْن كالجمر
أنجبا قبلة كلحظةِ الولادة
لن تعود

ومذاقاً لم يتكرَّرْ وعينيْن أسيرتيْن آسِرَتَيْن

وخلفَ صباً يذكِّرُه به
يلمحُ والدَيْن مرعوبَيْن
خشيةً عليه من حبٍ مبكرٍ
حين يتأملانه
يختلطُ عليهما الجزعُ بالكبرياء
ويطمْئِنُ أحدُهما الآخرَ بقلق. . .

كانا من منظورِهما خائبَيْن
حتى يحثّاه أن يكبرَ
حتى يصيرَ ما لم يكونا
ظهرت تعاسةُ الآخرين
لهما ريادة
وخيلاءُ التافهين بَدَتْ سعادة
أو كانا يخونان نفسَيْهما عند تعييره

بنباهةِ أترابه في اختيارِ المهن
وبمربّعاتِهم وأشكالِهم الهندسية الحاسرة
بها يقبعُ الناجحون
يبنون البيوتَ حتى الممات
كما تفنَّنَ الأقدمون في بناء القبورِ
ليسكنوها في الممات
أما هنا فيأهلونها عمودياً وهم أحياء
منتصبي ما تبقى من القامة
عُلَباً للحياةِ
يخرجون منها بعد حين أفقياً في علب الموتِ. . .

وفي التمرّد على النماذجِ الجاهزة
تفنَّنَتْ حقائقُه المطلقةُ
في ركلِ الأعرافِ الناجزة
ولَمْلَمَة الشجاعة من عنادِ ما نُبِذَ
ليس كجمعِ الأيتامِ فتاتَ المائدة

بل كما ينفرُ المشرَّدون من الشفقة الزائدة
وأبدعَتْ في شحْنِ طاقتِه غربةُ المنافي
وغضبُ المنفيين من اللغةِ السائدة
واللجوءُ إلى لغة الأزقةِ والأرصفة
أو إلى صمت الطيورِ على أسلاك الكهرباء
أو إلى صمت القبور

في رحلةٍ قصيرة
أعرضُ قليلاً
من حياةٍ طويلةٍ مستطيلة
استخدمَ ما لزم من الأشكال
وسيلةً في طريق بلا شكلٍ، بلا صورة
اتّخذتْ من النفي هوية
حتى أدرك أنه كان بالنفي أيضاً
يعومُ على شبرٍ من المطلقات
وأنه اندغمَ في ذاته، غار فيها

لم يبتعد بما فيه الكفاية
لم يأخذِ البُعدَ اللازمَ
كي تشعرَه بالحرج
والشعورُ بالحرجِ شرطٌ سابق
عل أيِّ نقد. . .

وبعدها؟
وبعدها خانته أحلامٌ عادتَهْ في اليقظة
وخداع الذات يكفي
كي يشعرَ المرءُ بطعم الخيانة
حين ينجلي السحرُ
وتنفدُ صلاحيةُ اللعنةِ. . .

وبعدها صار يقسو ويغضبُ
ثم صَمَتَ
ودام عهدُ الصمتِ حتى عاد يقدِّرُ لحظاتِ الهوى

ويسخَرُ من نفسِه صامتاً، ويبتسمُ. . .

ويستمر الأبيضُ
يصل البياضُ حدَّ الزرقة
ويبلغُ الصمتُ الكلامَ
أن التعصبَ من صنوفِ الغباء
هذا يقينُ التسامحِ اليتيمُ
وأن الحيَّ فيه حيٌ ينطقُ
ويحضره السؤالُ
ألديه بعد ما يَهبُ؟

* * *

مكتبة
t.me/t_pdf

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

حقيبة يد 5
كانت تسألُ 21
عن اللون المفضّل 23
ابتسامة 27
مديح القناعة 30
لون ورائحة للمساء 38
استنتاج متأخر 45
أمن 52
شرحٌ صباحيٌ 55
تشرفنا 65
عطلة 70
عدم 75
عبث 83
يقظة 85
عدمية 87
ركض موضعي 89
هاجس 91

لا أذكر متى 100
بالنسبة للحياة 105
اقتراح لمشهد الختام 111
جائزة ومرتبة 118
عفوية 126
نجاح 131
عن الحرية والضرورة 135
لو تعرفين 140
حنين 144